

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

حِينَ يَسْتَرْدُّ التَّوْحِيدُ قَلْبَ الْإِنْسَانِ



رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

سورة الأنعام

حين يسترُّ التوحيدُ قلبَ الإنسان

رداد السلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

سورة الأنعام من أخصب السور لأنها لا تعرض العقيدة في صورة مسائل جامدة، بل تحوّلها إلى مشاهد كونية، ومحاكمات عقلية، ورحلة طويلة لتحرير الإنسان من كل ما يستعبده دون الله.

وهي تبدأ بالحمد، لا لأن الطريق خالٍ من المكذبين، بل لأن التّكذيب كلّ لا ينقص من الحقيقة شيئاً. خلق الله السماوات والأرض، وجعل الظلمات والنور، ثم وقف الإنسان الصغير في زاوية من هذا الملك الواسع يعدل بربه غيره.

يا للمفارقة: الوجود كلّ شاهد، والقلب وحده يحاول أن يكون غائباً. السماء فوقه لا تستند إلى صنم، والأرض تحته لا تستأذن كاهناً، والليل والنهار يتعاقبان دون أن يصوّت لهما مجلس الآلهة؛ ومع ذلك يصنع الإنسان من خوفه ربّاً، ومن مصلحته قبلةً، ومن ميراث آبائه حجةً.

لذلك لا تأتي السورة لتضيف دليلاً صغيراً إلى كومة الأدلة، بل لتزيح عن البصيرة ما تراكم عليها. إنها لا تسأل الإنسان أولاً: أين البرهان؟ بل تكاد تسأله: ما الذي تخشى أن تخسره إذا أبصرت؟

فالشرك ليس دائماً سجود جبهةٍ لحجر؛ قد يكون انحناء القلب أمام قوة يظن أنها تملك مصيره، أو طاعة هوى يمنحه حق التحليل والتحرير، أو خوفاً من

بشرٍ يكبر في النفس حتى يزاحم مقام العبودية. وحين تقول السورة: ﴿قُلْ
أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾، فإنها لا تهدم صنماً في معبد قديم فحسب؛ إنها تدخل
إلى القلب، تبحث عن كل شيء منحه الإنسان وظيفته الإله وهو لا يسميه
إلهًا.

الفصل الأول

حين ينهض الحمد فوق أنقاض الشرك

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾

كلمتان تفتتحان السورة، لكنهما تحملان انقلاباً كاملاً في رؤية الوجود. فالحمد ليس ثناءً عابراً يمر على اللسان، بل اعترافٌ بأن كل جمالٍ في الكون أثرٌ من آثار إحسان الله، وأن كل كمالٍ تشهده النفس لا يستقل بنفسه، بل يردُّ القلب إلى خالقه.

وإذا امتلأ القلب بحمد الله ضاق فيه المكان المتاح للأصنام؛ لأن الشرك لا ينشأ فقط من اعتقاد أن مع الله خالقاً آخر، بل ينشأ أيضاً حين تُنسب النعم إلى غير مصدرها، ويُمنح المخلوق من التعظيم ما يحجب المنعم، ويقف الإنسان عند الهدية حتى ينسى من أهداها.

لهذا كان الحمد أول معولٍ يهدم الشرك.

إنه يعيد النعمة إلى صاحبها، والخلق إلى خالقه، والجمال إلى مبدعه، والفضل إلى من ابتدأه. وحين يرى الإنسان الأشياء على هذا النحو، لا يعود الكون حجاباً عن الله، بل يصبح دليلاً عليه؛ ولا تعود النعمة جداراً يقف عنده القلب، بل نافذةً ينفذ منها إلى معرفة المنعم وشكره.

﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾.

لا تأخذ السورة الإنسان إلى جزئية صغيرة لتقيم بها الحجة، بل ترفعه منذ الكلمة الأولى إلى أوسع مشهد تستطيع بصيرته أن تتأمله: السماوات والأرض. كل ما علاه، وكل ما حمله. كل ما أدركه بصره، وكل ما عجز عنه خياله.

بين هاتين الكلمتين يسكن العالم كله.

ومع ذلك، فإن الإنسان الذي يعيش داخل هذا الخلق قد يغفل عن الخالق. يأكل من أرضه، ويستظل بسمائه، ويتنفس من هوائه، ويتقلب في تدبيره؛ ثم يجعل خوفه الأكبر لمخلوق ضعيف يقيم معه فوق التراب نفسه!

ما أعجب الإنسان حين ينسى حجمه.

تكفيه لحظة صادقة ينظر فيها إلى السماء ليدرك أن كثيرًا مما يخشاه أصغر من أن يحتل قلبه. لكن سلطان الأشياء لا يُقاس بحجمها الحقيقي، بل بالحجم الذي يمنحه لها الوهم في الداخل. قد يكون المخلوق ضعيفًا، غير أن الخوف ينفخه حتى يصير في النفس عملاقًا؛ وقد يكون الباطل واهيًا، لكن الصمت الطويل يكسوه مهابةً مستعارة.

لهذا توسّع السورة أفق الإنسان قبل أن تناقش أوهامه. فمن رأى اتساع ملك الله، صغرت في عينه ممالك البشر. ومن عرف الخالق، تحرر من الخضوع لما خلق.

﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾.

جاءت الظلمات جمعًا، وجاء النور مفردًا. وليس لنا أن نبني على الصيغة وحدها ما لا يحتمله اللسان والسياق، لكن جرسها يفتح بابًا للتأمل: للضلال طرق كثيرة، أما الحق فوجهته واحدة. الباطل يستطيع أن يتشظى إلى مذاهب وأهواء وأرباب، أما التوحيد فيجمع القلب بعد تفرقه.

الظلمة لا تحتاج إلى بناء؛ يكفي أن يُحجب النور. وكذلك الضلال: قد يبدأ لا بإنكار صاحب الحقيقة، بل بإغلاق نافذة صغيرة في القلب، ثم تتكاثر الحجب حتى يألف الإنسان العتمة، ويغدو الضوء نفسه مزعجًا لعينييه.

ولذلك لم تقل الآية إن الله خلق النور وحده، بل أخبرت أنه جعل الظلمات والنور؛ فالكون بتقدير الله ينتقل بين ليل ونهار، والإنسان يُبتلى في مساحة الاختيار: أيجعل من الظلمة وقتًا ينتظر فيه الفجر، أم يتخذها وطنًا ثم يعادي كل من يحمل مصباحًا؟

﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾.

تأتي ﴿ثُمَّ﴾ حاملةً معنى الاستبعاد والتعجيب؛ فبعد هذا الخلق، وبعد هذه الدلالة، وبعد أن احتشدت السماوات والأرض والظلمات والنور بالشهادة، يقع ما لا ينسجم مع شيء من ذلك: يعدل الكافرون بربهم غيره، فيسوّون به من لا يخلق، ولا يرزق، ولا يحيي، ولا يميت.

إن الانحراف هنا ليس خطأً في نتيجة ذهنية فحسب؛ بل اختلالٌ في ميزان القلب. يوضع المحدود بإزاء المطلق، والفقير بإزاء الغني، والمخلوق بإزاء الخالق. وليس العجب أن يكون الصنم ضعيفاً؛ فكل ما سوى الله ضعيف. وإنما العجب أن يعرف الإنسان شيئاً من ضعفه، ثم يمنحه موضعاً لا يليق إلا بالله.

وهذه الآية لا تحبس الشرك في زمن مضى. فالأصنام تتغير أسماؤها وثيابها، لكنها تعود كلما منح الإنسان شيئاً من الخلق حقَّ التحكم المطلق في ضميره، أو علّق به رجاءه على وجه لا يكون إلا الله، أو أطاعه في تحريم ما أحل الله وتحليل ما حرّم الله.

قد لا ينحني الجسد، لكن القلب ينحني. وقد لا يُنصب تمثال، لكن تُقام في الوعي هيبّة مصنوعة. وقد لا يُسمّى الهوى إلهاً، لكنه يُطاع طاعة الإله.

ومن هنا تبدأ السورة عملها العميق: لا تسأل فقط عن الصنم الذي أمام الإنسان، بل عن العرش الذي أقامه له في داخله. لأن تحطيم الحجر يسير، أما تحرير القلب من حاجته إلى الحجر فهو المعركة الكبرى.

إن افتتاح السورة بالحمد والخلق والنور ليس تمهيداً بلاغياً، بل تأسيس لمنهج التحرير كله: املأ القلب بالله، يتضاءل فيه ما سواه؛ عرّفه بسعة الملك، تتحطم مهابة الأرباب الصغيرة؛ أره النور، يكتشف مقدار ما كان يسميه في الظلمة يقيناً.

فالإنسان لا ينجو من الأصنام بأن يعلن كراهيته لها فقط، وإنما ينجو حين يعرف الله معرفةً لا تترك في قلبه فراغًا تبحث الأوهام عن سكناه.

الفصل الثاني

الإنسان الذي يهرب من الدليل

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾.

بعد أن رفعت السورة بصر الإنسان إلى السماوات والأرض، أعادته إلى نفسه. فالذي يبحث عن دليل الله في الآفاق، يحمل في جسده دليلاً أقرب إليه من كل أفق. أصله من طين، وعمره محصور بين أجلين، ومصيره يمضي إليه وإن حاول أن ينساه؛ ثم يقف بعد ذلك كله في مقام الشك!

في الآية مفارقة موجعة: مادة الإنسان متواضعة، وعمره محدود، وعلمه ناقص، ومع ذلك يتضخم فيه الارتياح حتى يتعامل مع خبر الله كأن المتكلم به نذير راجعه، لا عبداً أحاط به الجهل من بدايته إلى نهايته.

﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾.

ليست (ثم) هنا انتقالاً زمنياً فحسب، بل كأنها ترفع ستار العجب: بعد أن خلقتكم من طين، وبعد أن ضربت لوجودكم آجال، وبعد أن كانت ولادتكم بغير اختياركم ومغادرتكم بغير إذنكم؛ تشكّون فيمن أنشأكم وفي قدرته على بعثكم!

إن الشك قد يكون مرحلة صادقة في طريق البحث، لكن الامتراء أعمق من مجرد غياب المعرفة؛ ففيه ترددٌ تخالطه المجادلة، واضطراب يرفض أن يستقر مع قيام الدليل. إنه شك لا يبحث دائماً عن الحقيقة، بل قد يبحث عن

مهرب منها؛ لأن اليقين ليس معلومة مريحة فحسب، وإنما تكليف يعيد ترتيب الحياة.

والإنسان قد يقبل الحقيقة ما دامت لا تطالبه بشيء. فإذا قالت له: غير طريقك، وردّ الحقوق، واكسر كبرياءك، وأخضع هواك لربك؛ تحولت أسئلته من طلب الفهم إلى صناعة الأعذار.

فبعض العقول لا ينقصها البرهان؛ ينقصها الاستعداد الأخلاقي لتحمل ما يوجبه البرهان.

سرّ الإنسان مكشوف في ملك الله

(وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ).

تنتقل السورة من الخلق والأجل إلى العلم المحيط. فليس الإنسان مخلوقاً ترك بعد إنشائه في زاوية مهملة من الكون، بل يعيش في ملك الله، تحت علمه، لا يخرج سرّه عن هذا العلم كما لا يخرج جهره، ولا تضيع حركة من أعماله مهما توارت عن أعين الناس.

والآية تثبت لله ما أثبتته لنفسه على الوجه اللائق بجلاله، من غير تشبيه ولا تكليف؛ (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ). إنه سبحانه يعلم السر والجهر، ويحيط بالكسب والضمير، ولا يحجبه خفاء عن خفاء.

قد ينجح الإنسان في صنع صورتين لنفسه: صورة يراها الناس، وأخرى يعيش بها بعيداً عنهم. قد يصقل عباراته، ويحسن اختيار مواقفه العلنية،

ويرتدي من الأخلاق ما يليق بالمجالس؛ لكن وراء ستار الصورة قلبٌ يعرف الله ما يخفي، ونيةٌ لا تسترها بلاغة التبرير.

وهنا يعيد القرآن الإنسان إلى وحدته الداخلية. فلا يعود همه أن يبدو صالحًا، بل أن يكون صادقًا؛ ولا يكفي بأن ينجو وجهه أمام الناس، بل يسأل عن قلبه حين يقف مكشوفًا أمام علم الله.

إن المراقبة لا تعني أن يعيش المؤمن مرتجعًا من عين تترصده، بل أن يحيا مطمئنًا في علم رب حكيم رحيم لا تضيع عنده طاعة خفية، ولا دمعة مستورة، ولا مقاومة داخلية لم يعلم بها أحد. ما أخفاه الظلم من الحقائق يعلمه الله، وما دفنه الجاحدون من الفضل لم يغيب عنه، وما تحمله العبد في صمت مكتوب في علم لا ينسى.

علم الله ليس تهديدًا للعاصي وحده؛ بل عزاءً للمظلوم، وإنصافًا للمجهول، وحفظٌ لكل خير لم يجد في الأرض شاهدًا عليه.

الآيات تمرّ والقلب معرض

﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾.

لم تقل الآية إن الآيات لم تأتهم، بل قررت أن آيةً بعد آية كانت تبلغهم، وأن موقفهم المتكرر منها كان الإعراض. فالعجز ليس في وصول الضوء، وإنما في وجهٍ يصير صاحبه على أن يديره إلى الجهة الأخرى.

والإعراض أدق من الإنكار؛ لأن المنكر قد يدخل في مواجهة مع الحقيقة، أما المعرض فيرفض من الأصل أن يمنحها حق النظر. إنه يغادر قبل أن

يسمع، ويسخر قبل أن يفهم، ويصدر حكمه قبل أن يقرأ القضية. وقد يكون الإعراض حيلة نفسية لحماية عالم داخلي يخشى صاحبه أن ينهار إذا أنصت بصدق.

فالحقيقة حين تدخل القلب لا تكتفي بأن تجلس ضيفاً فيه؛ إنها تعيد ترتيب أثاثه. تكشف أو هامه، وتصحح ولأته، وتسأله عن أمواله ومواقفه وعلاقاته ومصادر خوفه. ولذلك يفضل بعض الناس إبقاء الباب مغلقاً، ثم يقولون: لم نر دليلاً.

إنهم لا يخافون دائماً من ضعف البرهان، بل من قوته.

والقرآن يسمي المعنى قبل أن يجمّله الإنسان بالأسماء اللطيفة. قد يصف المرء نفسه بأنه متريث أو محايد أو مستقل التفكير، بينما يكون في حقيقته معرضاً؛ لا لأنه درس الدليل فلم يقنعه، بل لأنه يعلم في أعماقه أن الاقتناع سيكلفه شيئاً لا يريد أن يدفعه.

لهذا تتكرر الآيات ولا يتغير القلب. فهو لا يستقبلها استقبال الباحث، وإنما يقيم بينها وبين نفسه حواجز من العادة والهوى والتقليد. تمر الآية الأولى، فيصدها الانشغال. وتأتي الثانية، فيقاومها الكبر. وتجيء الثالثة، فيحاصرها الخوف من المجتمع. حتى يظن أن الوحي لا يخاطبه، مع أنه يسمع صوته في كل مرة.

وهكذا لا تكون القسوة فقداناً مفاجئاً للإحساس، بل تاريخاً طويلاً من الإعراضات الصغيرة.

كل مرة عرف فيها الإنسان شيئاً من الحق ثم أجّله، تراكم على قلبه غبار. وكل مرة سمع نداءً صادقاً ثم أسكتته، انطفأت في داخله نافذة. حتى يأتي اليوم الذي لا يعود فيه يضيق بالظلمة؛ لأنه نسي هيئة الضوء.

من التكذيب إلى السخرية

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

يبدأ الانحراف إعراضاً، ثم يتحول إلى تكذيب، ثم ينحدر إلى استهزاء. وهذه ليست مواقف منفصلة، بل درجات في سقوط الحس الأخلاقي أمام الحقيقة.

في البداية يتجنب الإنسان النظر؛ لأنه يشعر بشيء من قوة الدليل. ثم، مع طول الإعراض، يجروء على التكذيب. فإذا ألف التكذيب ولم ير العقوبة عاجلة، انتقل إلى السخرية؛ كأن تأخر الجزاء برهان على عدم وقوعه.

لكن الحقيقة لا تتبدل لأن أحداً استهزأ بها. الشمس لا تنطفئ إذا سخر منها أعمى، والطريق لا يزول لأن تائهاً أنكر وجوده. إن السخرية قد تمنح صاحبها لحظة انتصار نفسي، لكنها لا تغير شيئاً في بنية الواقع.

ولهذا جاءت العبارة مزلزلة: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

سيأتيهم الخبر حين يتحول الوعيد الذي سمعوه إلى واقع يرونه. وسيعرفون أن ما عدّوه مادةً للضحك كان وصفاً دقيقاً لمصير يتقدم إليهم في صمت. فالجزاء لا يستأذن اعتقاد الإنسان كي يقع، والآخرة لا تتوقف عند حدود تصورات المنكرين.

كم من حقيقة سخر منها أصحاب القوة، ثم صاروا بعد زمنٍ خبراً يرويه الآخرون! وكم من مظلوم بدا ضعيفاً، ثم أبقت الأيام قضيته وأسقطت الذين ظنوا أن قدرتهم على إسكاته قدرةً على إبطال حقه!

إن الباطل يخلط دائماً بين إسكات الصوت وإعدام الحقيقة. قد يمنع الكلمة من المنبر، ويحاصرها في الطريق، ويعاقب من يحملها؛ ثم يتوهم أنه انتصر عليها. لكنه لا يفعل أكثر من تأجيل لقائه بها إلى ساعة لا يملك فيها سلطة المنع.

التاريخ مقبرة الغرور

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾.

تأخذ السورة المكذبين إلى التاريخ، لا لتسليهم بأخبار الماضين، بل لتكسر وهم الاستثناء الذي يسكن كل قوة طاغية. فالطغاة يقرؤون التاريخ كأن قوانينه كانت تعمل في غيرهم فقط، وكأن ما أسقط الأمم السابقة سيتوقف بأدبٍ أمام أبوابهم.

تذكر الآية تمكيناً واسعاً، وسماءً مدراراً، وأنهاراً تجري. كانت أسباب الازدهار قائمة، والقوة ظاهرة، والرخاء يملأ المشهد. ومع ذلك لم تكن النعمة وثيقة أمان من العاقبة.

لقد ظنوا أن كثرة مواردهم تعني صحة طريقهم، وأن امتداد سلطانهم علامة رضا، وأن تأخر العقوبة تصديق لمقولاتهم. وهذه إحدى أخطر خدع القوة:

أنها تمنح صاحبها شعورًا بأنه فوق المراجعة. فإذا اتسعت مملكته حسب أن الحق قد اتسع معه، وإذا تدفقت أمواله توهم أن السماء وقّعت له شهادة البراءة.

لكن النعمة قد تكون مجالًا للامتحان، والتمكين قد يكون موعدًا لانكشاف المعدن. ليست القضية فيما يُعطى الإنسان، بل فيما يصنع بما أُعطي. فقد تحمل الأمطار الحياة إلى الأرض، بينما يحمل أهلها في ضمايرهم أسباب الفناء.

(فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ).

عبارة قصيرة تردُّ التاريخ إلى قانونه الأخلاقي. لم تهلكهم قلة الإمكانيات؛ فقد كانت الأنهار من تحتهم. ولم يسقطوا لأن غيرهم أكثر حضارة بالضرورة؛ فقد مكن لهم تمكينًا عظيمًا. كان التصدع قد بدأ في الداخل، في العلاقة بين القوة والحق، وبين النعمة والشكر، وبين الإنسان وميزان ربه.

فالذنوب ليست أحداثًا فردية معزولة دائمًا؛ قد تتحول إلى بنية مجتمع: ظلمٌ تحميه القوانين، وكذبٌ تروجه المنابر، ونهبٌ يُسمى سياسة، واستعلاءٌ يلبس ثوب الفضيلة. وحين يصبح الفساد نظامًا، لا يعود الخراب حادثًا يأتي من الخارج؛ بل مصيرًا ينمو في أحشاء القوة نفسها.

ثم تأتي الخاتمة: (وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ).

تسقط أمة، ولا تتوقف الأرض. يرحل الذين ملأوا الدنيا ضجيجًا، ثم تشرق الشمس على وجوه أخرى. تنطفئ أسماء ظن أصحابها أن التاريخ لا يكتب إلا بحبرها، وتبقى الحياة جاريةً من بعدهم.

إنها ضربة لكبرياء الإنسان الذي يتوهم أن غيابه نهاية العالم. فالله لا يعجزه أن يستبدل جيلاً بجيل، وأن يفتح للحق طريقاً بعد أن سدّه المتكبرون، وأن ينشئ من وراء الركام حياة لم تخطر للراجلين.

وهكذا تعالج السورة الامتراء من جهتين: تضع الإنسان أمام أصله الطيني وأجله المحدود، ثم تضع الأمم أمام خرائب من كانوا أشد منها قوةً وأوسع تمكيناً. فإذا لم يتواضع الفرد أمام خلقه وموته، فليتواضع المجتمع أمام مقابر الحضارات.

لكن القلب الذي قرر الهرب يستطيع أن يمر حتى بالتاريخ مغمض العينين. ولهذا ستكشف السورة في خطواتها التالية حقيقةً أشد إيلاماً: أن المشكلة قد تبلغ حدّاً يرى فيه الإنسان البرهان محسوساً بين يديه، ثم يبحث عن اسم آخر يفرّ به منه.

الفصل الثالث

حين لا تكفي المعجزة قلباً قرر ألا يؤمن

(وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ).

تبلغ السورة هنا قلب المعضلة: ليست كل مطالبة بالدليل بحثاً صادقاً عن الحقيقة، فقد يطلب الإنسان برهاناً جديداً ليؤجل الاستجابة للبرهان القائم. ولو نزل الكتاب مكتوباً في صحيفة محسوسة، لا يتلقونه سماعاً فقط، بل تلمسه أيديهم، لما انتهت المراوغة؛ وإنما تغيّر اسمها.

سيقولون: سحر.

إن اليد قد تلمس، والعين قد ترى، ثم يبقى القلب بعيداً. فالإدراك الحسي لا يصنع الإيمان وحده؛ لأن الحواس تنقل المشهد، لكن القلب هو الذي يمنحه دلالاته. فإذا فسد ميزان القلب استطاع أن يعيد تسمية كل حقيقة بما يحفظ له موقفه القديم.

وهنا تكشف الآية وهماً شائعاً: أن المسافة بين الكفر والإيمان هي دائماً مسافة دليل. قد تكون أحياناً مسافة كبر، أو مصلحة، أو خوف من تبدل المكانة. فالمشرك الذي بنى سلطانه على وثنية المجتمع لا ينظر إلى الوحي بوصفه فكرةً فحسب، بل خطراً يهدد النظام الذي يمنحه النفوذ. ولو اعترف بالحقيقة، لم تتغير عبادته فقط؛ بل تغير ترتيب القوة من حوله.

ولذلك قد يكون الإنسان شديد الذكاء في صناعة التأويل الذي يحميه من الحقيقة. فإذا جاءه البرهان من جهة، فتح باباً للفرار من جهة أخرى. وإذا لمس بيده ما كان يطالب برؤيته، قال: خُذت الحواس. ليس لأنه أثبت الخداع، بل لأنه لا يريد للبرهان أن يبلغ موضع القرار.

إن المشكلة لم تعد: ماذا رأى؟

بل: ماذا يريد ألا يرى؟

طلبُ الملك والفرار من بشرية الرسول

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَفُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾.

اقترحوا أن ينزل ملك، كأن بشرية الرسول ﷺ نقصٌ في الرسالة. كانوا يريدون واسطةً مدهشةً تعفيهم من مواجهة الحقيقة في صورتها القريبة: رجل يعرفون نسبه ولسانه وصدقه، يأكل كما يأكلون، ويمشي في أسواقهم، ثم يدعوهم إلى أن يخرجوا من عبادة المألوف إلى عبادة الله.

كانت بشرية الرسول جزءاً من الحجة؛ لأنه يثبت بإمكانه البشري أن طريق الوحي قابلٌ لأن يُعاش في الأرض. ولو كان المبلّغ ملكاً لوجدوا لأنفسهم عذراً آخر: كيف نطبق ما يطيقه من خُلق من طبيعة غير طبيعتنا؟

لكن الإنسان المراوغ لا يطلب المعجزة ليتبعها دائماً؛ بل قد يطلبها لأنه يعلم أنها لم تأتِ على الصورة التي اقترحها، فيجعل اقتراحه شرطاً لتعطيل كل ما عداه.

ثم تكشف الآية ما لا يدركونه: نزول الملك على الوجه الذي اقترحوه قد يكون فصلاً للقضية وانتهاءً لمهلة الاختبار، فإذا جاء الأمر الحاسم ولم يؤمنوا لم يعودوا يُمهّلون. كانوا يطلبون ما يظنونونه باباً إلى اليقين، وهو في حقيقته باب إلى القضاء.

كم يجهل الإنسان رحمة الله حين يتعجل ما لا يعرف عاقبته! يظن أن التأخير حرمان، وقد يكون إمهالاً. ويحسب أن عدم إجابة اقتراحه إغراضٌ عنه، وقد يكون حفظاً له من أمر لو وقع لانتهدت فرصته.

فليست كل استجابةٍ لطلب الإنسان خيراً، ولا كل منعٍ شراً. إنه يرى اللحظة، والله يعلم عواقبها؛ ويختار بما يوافق انفعاله، والله يدبر بحكمةٍ لا يحيط بها علمه المحدود.

لو كان الرسول ملكاً

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾.

حتى لو جاء الملك، لاقتضت حكمة مخاطبة البشر أن يتمثل لهم في صورة رجل يستطيعون رؤيته وسماع كلامه. وعندئذٍ ستعود الشبهة نفسها: نرى رجلاً، فأين الملك؟

إنهم يدورون داخل دائرة صنعتها المراوغة. يطلبون صورةً من الدليل، فإذا جاءت في حدود طاقتهم على التلقي اعترضوا على صورتها؛ ولو ظهرت لهم في حقيقتها التي لا يطبقونها انقطع مجال التكليف.

و﴿يَلْبِسُونَ﴾ تكشف أنهم شاركوا في صناعة الالتباس الذي يشكون منه. لم تكن الحقيقة غامضة في ذاتها، لكنهم ألقوا عليها من اعتراضاتهم ما جعلهم عاجزين عن رؤيتها. فالإنسان قد يبدأ بصناعة الشبهة، ثم ينتهي أسيراً لها؛ يكررها حتى ينساها بوصفها احتمالاً، ويعاملها كأنها حقيقة نهائية.

وهذا من عقوبات الانحياز الخفي: أن يخدع المرء غيره أولاً، ثم يطول مقامه في الخديعة حتى يخدع نفسه. يصنع قناعاً، ثم ينسى ملامحه تحته. يختار التأويل الذي يوافق هواه، ثم يظن بعد زمن أن هواه هو الذي قاده إليه الدليل.

حين تنقلب السخرية على أصحابها

﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

يتجه الخطاب إلى النبي ﷺ بالعزاء والتثبيت. فالذي يواجه السخرية قد يشعر للحظة أن الحق صار غريباً، وأن صوت المستهزئين أعلى من صوت الحقيقة. فجاءه التاريخ الرسالي يقول: لست أول رسول اتخذت منه الغفلة مادةً للضحك، ولن تكون السخرية حكماً نهائياً على رسالتك.

الرسول يأتون إلى أقوام استقر الباطل في حياتهم حتى غدا مألوفاً، وكل حقيقة تهز المألوف تبدو في بدايتها غريبة. والمجتمع حين يعجز عن رد الفكرة بالحجة، قد يحاول قتل هيبته بالنكته، وتشويه حاملها باللقب، وتحويل القضية الجادة إلى مادة للتندر.

فالسخرية ليست دائماً دليل قوة؛ كثيراً ما تكون حيلة العاجز عن المواجهة. يضحك لكيلا يفكر، ويستخف حتى لا يعترف بأن الكلمة أصابت موضعاً يخشاه في نفسه.

لكن الآية تقول: (فَحَاقَ). والكلمة ترسم إحاطة العقابة بالمستهزئين من حيث ظنوا أنهم بعيدون عنها. ما جعلوه موضع سخرية عاد فطوّقهم، وما استصغروه صار الحقيقة الكبرى التي لا يستطيعون الفرار منها.

ويتعلم صاحب الحق ألا يجعل ضحك الناس ميّزاً لقيمة ما يحمل. فقد يضحك مجلس كامل من كلمة تنجو بها الأجيال، ويصفق جمهور لوهم يحفر تحت أقدامه نهايته. الكثرة تصنع ضجيجاً، لكنها لا تصنع حقيقة.

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ).

لا تطلب السورة من الإنسان أن يسمع التاريخ فقط، بل أن يسير وينظر. إن الأرض تحتفظ بشواهداها، وإن صمت الخرائب أفصح أحياناً من خطب الأحياء. هناك مدن كانت ممتلئة بالأصوات ثم سكنت، وقصور حسب أصحابها أن جدرانها تمنع القدر ثم غدت موضعاً لعبور الريح.

السير يحرر الإنسان من ضيق لحظته. فالطاغية يبدو ضخماً لمن يراه داخل زمانه، لكنه يصغر حين يوضع في امتداد التاريخ. والمستكبر يبدو كأنه يملك المستقبل، حتى تمر الأعوام فيصبح سطرًا صغيراً في حاشية العبرة.

إن القرآن لا يدعو إلى سياحة العين وحدها، بل إلى سياحة البصيرة: (ثُمَّ انظُرُوا). فقد يسير المرء بين آثار الهالكين ولا يرى إلا حجارة، كما قد يقرأ أخبارهم ولا يقرأ القانون الذي أسقطهم. النظر المطلوب هو الذي يعبر من

الأثر إلى العاقبة، ومن الحادثة إلى السنّة، ومن خراب البيوت إلى خراب القيم الذي سبقه.

الحضارات لا تسقط أولاً من جدرانها، بل من موازينها. حين يصبح الظلم مهارةً سياسية، والكذب ضرورةً اجتماعية، والترف علامة نجاح، والضعفاء وقوداً لبقاء الأقوياء؛ يكون الانهيار قد بدأ، وإن ظلت الأبنية واقفةً والأعلام مرفوعة.

سؤال الملك الذي لا يملكه إلا جواب واحد

(قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ).

يسألهم، ثم يجيب؛ لأن الجواب من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى انتظار. لمن هذا الوجود؟ من يملك أصله وبقائه ومصيره؟ لمن السماء التي لا يبلغون أطرافها، والأرض التي لا يملكون منها إلا موضعاً مؤقتاً يتركونه حين يأتي الأجل؟

(قُلْ لِلَّهِ).

كلمتان تعيدان كل شيء إلى مالكة الحقيقي. ليست ملكية البشر إلا عاريةً محدودة: يملكون زمناً قصيراً، ويتصرفون في حدود، ثم يخرجون مما جمعه كما دخلوه. يكتب الإنسان اسمه على الأرض، ثم يأتي الموت فيمحوه من سند الملكية ويبقي الأرض لمن بعدها.

لكن المفاجأة تأتي بعد تقرير الملك: (كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ).

كان مقتضى السياق أن يرتجف القلب أمام المالك الذي لا يخرج شيء عن سلطانه، فإذا بالآية تفتح في قلب الملك باب الرحمة. هو سبحانه المالك القادر، ومع ذلك أخبر عن نفسه أنه كتب على نفسه الرحمة، كتابةً تليق بجلاله، تفضلاً منه ووعداً لا يُخلفه.

ليست الرحمة قوةً تضغط على إرادة الله، تعالى الله عن ذلك؛ بل فضلٌ أوجبه سبحانه على نفسه بمحض كرمه. فهو لا يُسأل عما يفعل، ومع ذلك عرّف عباده بنفسه من باب الرحمة، وأرسل الرسل رحمة، وأنزل الكتاب رحمة، وأمهل المعرضين رحمة، وفتح باب التوبة رحمة.

إن وجود المهلة بعد التكذيب رحمة.

وصول الإنذار قبل العقوبة رحمة.

بقاء القلب قادراً على الندم رحمة.

وأن يسمع الإنسان آيةً توقظه بعد طول شروده رحمة.

ولكن الرحمة لا تعني إلغاء العدل، ولذلك يعقبا قوله تعالى: ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

الرحمة التي لا تقيم ميزاناً تتحول في التصور البشري إلى فوضى، أما رحمة الله فحكيمة عادلة. ومن تمام الرحمة بالمظلوم أن يكون هناك يوم يُستوفى فيه حقه، ومن تمامها بالخير أن لا يضيع أثره، ومن تمامها بالإنسان أن تكون حياته ذات معنى ومسؤولية، لا عبثاً ينتهي بأن يأكل القوي الضعيف ثم يذهب كلاهما إلى مصير واحد بلا حساب.

القيامة ليست مشهد تخويف منفصلاً عن رحمة الله؛ إنها من مقتضياتها. فلولها كانت دموع كثيرة قد سقطت بلا إنصاف، وحقوق كثيرة دُفنت مع أصحابها، وتضحيات عظيمة انطفأت دون جزاء.

لكن كل شيء محفوظ لليوم الذي لا تضيع فيه القضية بسبب غياب الشاهد، ولا ينتصر فيه صاحب النفوذ لأنه أحسن تزوير الرواية.

الخسارة التي تبدأ من الداخل

(الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ).

لم تقل الآية: خسروا أموالهم أو سلطانهم أو صورتهم بين الناس؛ بل خسروا أنفسهم. وهذه أفدح خسارة، لأن كل ما يفقده الإنسان خارج ذاته يمكن أن يبقى هو بعده، أما إذا خسر نفسه فمن الذي بقي له ليمتلك الأشياء؟

يخسر الإنسان نفسه حين يفصلها عن غايتها، وحين يبيع فطرتها لهوى عابر، وحين يستهلك عمرها في بناء صورة ستتهار عند أول لقاء بالحقيقة. قد يربح العالم كله في أعين الناس، ثم يكتشف أنه عاد من السوق بلا قلب.

إن النفس لا تُخسر دفعةً واحدة في الغالب. تُقْتَطَع منها أجزاء صغيرة: صدقٌ يتنازل عنه صاحبه لينال مصلحة، وكرامةٌ يبيعها لينجو من غضب متسلط، ومبدأٌ يؤجله حتى تمر الأزمة، ونورٌ يطفئه كي ينسجم مع جماعته. ثم ينظر بعد زمن فلا يكاد يعرف الإنسان الذي صار إليه.

وهكذا تربط السورة بين الإيمان واسترداد النفس. فالإيمان ليس إضافةً خارجية تزين الحياة، بل عودة الإنسان إلى حقيقته: مخلوقاً لله، محتاجاً إليه،

سائرًا إلى لقائه. فإذا عرف ربه عرف موضعه، وإذا عرف موضعه نجا من أن يمنح الأشياء أكبر من أحجامها.

السكون والحركة في قبضة الواحد

﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

تختتم هذه الحركة بمشهد يغمر الوجود كله. كل ما سكن في الليل والنهار له: المخلوقات في أوكارها، والعيون حين تغفو، والخفايا التي تستتر بالعتمة، والحركات التي تهدأ فلا يسمعها أحد.

وذكر السكون لا يخرج الحركة عن ملكه؛ فالعبارة تحيط بعالم الزمن وما يحتويه. كل ما سكن وما تحرك، وما ظهر وما خفي، وما تكلم وما صمت، داخل في ملك الله وعلمه.

﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

يسمع ما لا يصل إلى أسماع الخلق، ويعلم ما لا تبلغ إليه ظنونهم. يسمع دعاء المنفرد حين يضيع صوته في صخب العالم، ويعلم الوجد الذي عجز صاحبه عن صياغته في كلمات. لا يحتاج المظلوم أن يرفع صوته حتى يبلغ علم الله، ولا يحتاج الصادق أن يحشد الشهود حتى يُحفظ صدقه.

وعند هذه الحقيقة يهدأ القلب: ما دام الوجود كله لله، وما دام سبحانه سميعًا عليمًا، فليس في الكون زاوية يضيع فيها عبده، ولا ليلٌ كثيف يستطيع أن يحجب عنه أنبياء أو دعاء.

وهنا تنتهي السورة لسؤالها الحاسم: إذا كان الملك كله لله، والرحمة منه، والسمع والعلم له، فكيف يتخذ القلب ولياً سواه؟ وكيف يترك فاطر السماوات والأرض، ثم يعلق مصيره بمخلوق يأكل لأنه يجوع، وينام لأنه يتعب، ويموت لأنه لا يملك البقاء؟

الفصل الرابع

الولاية التي تحرر القلب من الخوف

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ اتَّخَذُ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾.

بعد أن قررت السورة أن ملك السماوات والأرض لله، وأن ما سكن في الليل والنهار له، جاء السؤال الذي لا يترك للقلب منفذاً إلى التعلل: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ اتَّخَذُ وَلِيًّا؟﴾

والولي ليس مجرد معبود تُؤدَّى له الشعائر؛ إنه من يتخذه الإنسان موضع ثقته ونصرته واعتماده، ومن يسلمه زمام قلبه، ويستمد منه الأمان والتوجيه. ولهذا فإن سؤال الولاية أعمق من سؤال الاعتقاد اللفظي؛ فقد يقول الإنسان إن ربه الله، ثم تتوزع طمأنينته بين قوى يخشاها، وأسباب يظن أنها تستقل بمصيره، وأشخاص يمنحهم في داخله من السلطان ما يبدد حريته.

إن السورة لا تسأل: هل تعرف أن الله خالقك؟ فالمشركون كانوا يقولون بأصل الخلق. وإنما تسأل: إذا عرفت ذلك، فلمن سلمت قلبك؟ ومن الذي يحكم خوفك ورجاءك؟ وإلى من تفر حين تضيق بك الحياة؟

قد تكون المعرفة صحيحة، لكن الولاية فاسدة. يعرف المرء أن الله هو الرزاق، ثم يريق كرامته عند باب مخلوق. ويقر بأن الله هو الحافظ، ثم يعيش كأن مصيره معلق برضا بشر مثله. ويؤمن أن الله هو المالك، ثم يبيع حقه إرضاءً لقوة يظن أنها تستطيع أن تغلق عليه أبواب الأرض.

وهنا يأتي وصف الله: ﴿فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

الفاطر هو المبدع المنشئ على غير مثال سابق؛ فالسماوات والأرض لم تكونا، ثم أنشأهما الله بقدرته. فكيف يترك القلب فاطر الوجود ليتعلق بجزء صغير من هذا الوجود؟ وكيف يخشى المخلوق خوفاً يزاحم مقام الخالق، وهو لم يختار لنفسه ميلاده، ولا يملك أن يؤخر موته؟

ثم تأتي المقابلة التي تهدم أوهام الاستغناء: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾.

كل ما سوى الله محتاج. أقوى البشر يأكل ليستبقي جسده، ويشرب لأن العطش يكشف فقره، وينام لأن التعب يهدم ادعاءه. قد تحيط به المظاهر، لكنه في حقيقته كائن يحمل حاجته معه؛ لا يستطيع أن يستغني عن لقمة، ولا أن يمنع الشيوخوخة من السير في عروقه.

أما الله سبحانه فهو الغني الحميد؛ يرزق ولا يُرزق، يطعم عباده ولا يحتاج إلى شيء منهم. وحين يستقر هذا المعنى في القلب تتغير أحجام القوى: لا يعود الغني في عرف الناس غنياً على الحقيقة، وإنما عبداً تتدفق إليه بعض الأرزاق ثم تُسلب منه أو يُسلب منها.

إن من يطعمك بأمر الله ليس مصدر الرزق، بل طريقاً مرّ الرزق من خلاله. فإذا أغلق طريقاً، لم تنفذ خزائن الله؛ وإذا منعك سبباً، لم تنته الأسباب. فالمؤمن يشكر اليد التي أحسنت إليه، لكنه لا يجعلها ربّاً خفياً في وجدانه.

الإسلام: أن تكون لله أولاً

(قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ).

الإسلام هنا ليس اسم جماعة، بل حركة وجود كاملة: أن يُسلم الإنسان وجهه لله، فلا يبقى في داخله ركن ينازعه فيه هوى أو خوف أو تقليد. أن يكون لله قبل أن يكون للعائلة والقبيلة والجمهور، وأن يتلقى ميزانه من الوحي قبل أن يستعيره من بيئته.

(أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ) تحمل معنى القدوة والمبادرة؛ فالرسول ﷺ لا يدعو الناس إلى طريق يقف خارجه، بل يكون أول الداخلين فيه. والقيادة الرسالية لا تأمر بما تستثني نفسها منه، ولا تجعل القيم عبئاً على الأتباع وامتنيازاً للقادة.

إنها تبدأ من ذات حامل الرسالة. فإذا دعا إلى الصدق كان أول الصادقين، وإذا دعا إلى الثبات كان أول من يدفع ثمنه، وإذا طالب الناس بالخضوع لله لم يحتفظ لنفسه بمنطقة سيادة خارج هذا الخضوع.

هنا يفترق الرسول عن كل متسلط يستخدم الفكرة ليحكم الناس: المتسلط يريد أن يسلموا له، والرسول يريد أن يسلم هو وإياهم لله. ذلك بيني عرشه فوق أكتافهم، وهذا يهدم كل عرش ينازع الله حق الأمر والعبادة.

خوف يصنع الشجاعة

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ).

النبي ﷺ، وهو أكرم الخلق على الله، يعلن خوفه من المعصية. ليست منزلته تصريحًا بالخروج عن العبودية، بل كلما عظمت معرفته بربه عظم استشهاده لمسؤوليته.

وهذا الخوف لا يحطم النفس، بل يحررها. فمن خاف الله على الحقيقة صغرت أمامه المخاوف الأخرى. القلب لا يستطيع أن يمنح كل شيء خوفًا مطلقًا؛ فإذا امتلأ بهيبة الله، انكشفت فيه هيبة الظالمين إلى حجمها الحقيقي.

إن الخوف من البشر يبعثر الإنسان؛ لأنه يدفعه إلى تبديل وجهه كلما تبدلت موازين القوة. أما الخوف من الله فيجمعه؛ إذ يمنحه ميزانًا واحدًا يقيس به المواقف، فلا يقول اليوم ما ينكره غدًا طلبًا للسلامة، ولا يجعل الحق تابعًا لمن يملك العقوبة.

ولذلك كان أهل الخشية أشجع الناس. ليس لأنهم لا يرون الخطر، بل لأنهم يرون فوقه قدرة الله. ويعرفون أن النجاة الحقيقية ليست أن يخرج الجسد من المحنة سالمًا بينما يخرج الضمير مكسورًا، وإنما أن يلقي العبد ربّه وقد حفظ أمانة الحق.

(مَنْ يُصْرِفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ).

الفوز في ميزان الدنيا قد يكون منصبًا أو ثروة أو غلبة مؤقتة، أما الفوز المبين فهو أن يصرف الله عن عبده عذاب ذلك اليوم. فكل نجاح ينتهي عند

القبر نجاح ناقص، وكل مكسب يقود صاحبه إلى الخسارة الأخيرة هزيمة ترتدي ثياب الانتصار.

الرحمة هنا ليست شعورًا مجردًا؛ إنها نجاة حقيقية من عاقبة حقيقية. وكأن السورة تصح بوصلة الإنسان: لا تسأل فقط عما كسبت في الطريق، بل عن الجهة التي انتهى إليها الطريق.

لا كاشف للضر إلا هو

(وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

تدخل الآية إلى أكثر مواضع الإنسان حساسية: الضر والخير. ففيهما ينكشف توحيده العملي؛ إذ قد تستقيم عباراته في الرخاء، ثم إذا نزل به الضر ظهرت الجهات التي كان قلبه متعلقًا بها في الخفاء.

لا تنفي الآية الأسباب؛ فالدواء سبب، والطبيب سبب، والمال سبب، والناصح سبب. لكنها تنفي استقلالها. قد يجتمع الدواء والطبيب ولا يقع الشفاء، وقد تضيق الأسباب كلها ثم يأتي الفرج من باب لم يكن في الحساب.

فالسبب نافذة، وليس هو الذي يصنع الشمس.

وحين يعي المؤمن ذلك، يأخذ بالأسباب بجد، لكنه لا يسجد لها بقلبه. يطرق الأبواب، ولا يظن أن خزائن الرحمة محصورة وراء أحدها. وإذا فشل سبب لم ينهدم يقينه؛ لأنه لم يكن يعبد السبب، وإنما كان يستخدمه متوكلًا على مسيبه.

(فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ).

في العبارة ضيقٌ على الوهم وسعةٌ للرجاء. تضيق الجهات التي يتخيل القلب أنها تملك الخلاص، حتى تبقى جهة واحدة لا تغلق. قد يعجز الناس، وتنفد الوسائل، ويطول الليل، لكن العجز لا يلحق قدرة الله.

وليس معنى ذلك أن كل ضرر سيكشف في الوقت والصورة اللذين يختارهما الإنسان؛ فقد يكون كشفه شفاءً، أو تعويضاً، أو دفعاً لضرر أعظم، أو رفعةً يدرك معناها يوم القيامة. لكن اليقين الثابت أن الضرر ليس قوة سائبة خرجت عن ملك الله، وأن العبد لا يعيش في كون مهمل تتقاذفه المصادفات.

(وَإِنْ يَمْسَسْكَ بَخِيرٌ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

الضرر يُكشف، أما الخير فيفيض من القدرة المطلقة. وما يسميه الإنسان مستحيلاً قد يكون وصفاً لحدود وسائله، لا لحدود القدرة. إنه يرى الأبواب التي يعرفها، فإذا أغلقت قال: انتهى الطريق. لكن لله من طرائق التدبير ما لا يدخل في خيال العبد.

كم من خير جاء متأخراً لأنه كان يُهيأ على صورة أوسع! وكم من منع بدا قاسياً، ثم اتضح أنه كان يحرس النعمة من توقيت يفسدها! وكم من باب بكى الإنسان عند إغلاقه، ثم حمد الله بعد أعوام لأنه لم يُفتح!

القاهر فوق عباده

(وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ).

تثبت الآية لله علوه وقهره على الوجه اللائق بجلاله، من غير تشبيه ولا تكيف؛ فهو سبحانه (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ). لا يخرج أحد عن سلطانه، ولا يعجزه هارب، ولا تتحرك قوة إلا في ملكه.

لكن القهر اقترن بالحكمة والخبرة: (وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ).

فليست القدرة الإلهية بطشاً مجرداً، تعالى الله عن ذلك، بل قدرةٌ تجري بحكمة، وتدبيرٌ قائم على علم تام. والإنسان يخشى القوة البشرية لأنها قد تكون جاهلة أو عابثة أو متقلبة؛ أما سلطان الله فمقترن بالحكمة التي تضع كل شيء موضعه، والخبرة التي لا تخفى عليها عاقبة.

وهذا الاقتران يسكب في القلب طمأنينة عميقة: الذي يملك أمرك ليس قوياً فحسب، بل حكيم؛ وليس عالماً بظاهر حالك فقط، بل خبير بما انطوى عليه صدرك وما يصلح مآلك.

أعظم شهادة

(قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ).

كان المكذبون يطلبون شهادات توافق أهواءهم، فجاء الجواب من أعلى مقام: الله شهيد بين الرسول وبينهم. وما دام الله قد شهد لرسوله بالوحي، فلا تضر الحقيقة قلّة من صدقها، ولا تنفع الباطل كثرة من هلك له.

ثم تحدد الآية وظيفة القرآن: ﴿لَا نُذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾.

القرآن نفسه حامل الإنذار، وحجته تمتد إلى كل من بلغه. لم يُنزل ليكون أثرًا محفوظًا على الرفوف، ولا صوتًا جميلًا يعبر الأذان دون أن يوقظ المصائر؛ بل جاء ليضع الإنسان أمام مسؤوليته.

و﴿مَنْ بَلَغَ﴾ تفتح الرسالة على الأزمان والأمكنة. فكل قلب بلغه القرآن دخل في دائرة خطابه، وكأن الوحي يعبر القرون محتفظًا بحرارة النداء الأول. لا تصبح الآية قديمةً لأن أجيالًا قرأتها؛ فهي تأتي إلى كل قارئ في لحظته، وتسأله كما سألت أولئك: أين تقف أنت؟

ثم تواجه السورة أصل الانحراف: ﴿أَنْتُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

هنا لا توجد مساحة لمجاملة الباطل. ﴿قُلْ لَا أَشْهَدُ﴾. قد يشهد المجتمع كله بعقيدته الموروثة، لكن كثرة الشهود لا تحول الوهم إلى حقيقة. المؤمن لا يؤسس يقينه بالتصويت، ولا يقيس صحة العقيدة بعدد حاملها.

﴿وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

البراءة موقف معرفي وأخلاقي؛ وضوح لا عدوان فيه، وثبات لا ذوبان معه. فالتسامح مع الإنسان لا يعني التصديق بباطله، وحسن المعاملة لا يقتضي أن تتنازل الحقيقة عن اسمها. يمكن للمؤمن أن يعدل ويرحم ويحسن، لكنه لا يخلط بين الرحمة الفكرية وتمييع العقيدة.

معرفة يقتلها الهوى

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

ليست المعرفة وحدها ضماناً للهداية. قد يبلغ الدليل من الوضوح مبلغ معرفة الأبناء، ثم تتدخل الأهواء فتحول بين الإنسان وما عرف. فالعقل يستطيع أن يصل إلى الحقيقة، لكن الإرادة قد ترفض دفع ثمنها.

يعرفونه، ومع ذلك لا يؤمنون.

بين المعرفة والإيمان مسافة اسمها الصدق. فالإيمان ليس أن ترى الحق فقط، بل أن تسلم له حين تراه. وما أكثر الذين هُزموا لا لأن الباطل أقنع عقولهم، بل لأن الحق هدد مصالحهم!

إن أخطر ما يصيب المعرفة أن تتحول إلى أداة لخدمة الانحياز. عندها لا يعود العالم يبحث عما يدل عليه الدليل، بل يبحث في الدليل عما يحمي به موقفه. وقد يملك من المصطلحات ما يستطيع به أن يصوغ فراره في هيئة نظرية محكمة.

ولهذا تكرر السورة وصف الخسارة: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾.

لقد بقيت عندهم المعلومات، وضاعت النفس التي كان ينبغي أن تهتدي بها.

الظلم الأكبر: أن تنسب إلى الله ما لم يقله

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾.

تجمع الآية بين انحرافين متقابلين: أن تقول على الله ما لم يقله، أو أن ترد ما قاله. في الأول يضيف الإنسان إلى الوحي من هواه، وفي الثاني يحذف منه ما لا يوافقه. وكلاهما يجعل الذات البشرية حاكمةً على كلام الله.

والافتراء على الله ليس كذبًا عاديًّا؛ لأنه يمنح الهوى قداسةً مستعارة. قد يظلم الحاكم ثم يبحث عن خطاب ديني يسمي ظلمه مصلحة، ويحتكر المتسلط حقوق الناس ثم يطلب ممن يكسو فعله بثوب الشرع، وتصنع الجماعة عاداتها ثم ترفعها إلى مقام الأحكام التي لا تقبل المناقشة.

وهنا يصبح الكذب أشد خطرًا؛ لأنه لا يدخل إلى الناس باسمه، بل يدخل مرتديًا جلال الدين.

لذلك كان العلم أمانةً قبل أن يكون منزلة. ومن لم يقف عند حدود ما يعلم، قد يجعل جهله توقيعًا عن الله، ويحمل الوحي أوزار نفسه ثم يطالب الناس بالخضوع لها.

﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾.

قد ينجح الافتراء زمنيًا، وقد يمنح صاحبه جمهورًا أو سلطانًا، لكنه لا يفلح. فالنجاح حدث محدود، أما الفلاح فنجاة المسار كله. وكم من باطل نجح في ساعة ثم فشل أمام الحقيقة التي لا تنام.

يوم تسقط الآلهة المصنوعة

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾.

يتغير المشهد. تنتهي المجادلة في الدنيا، ويقف الجميع في ساحة لا يستطيع أحد أن يصنع فيها رواية بديلة. ويسألهم الله عن شركائهم، لا لأنه سبحانه يخفى عليه مكانهم، بل لإظهار عجزهم وانهيار الزعم الذي عاشوا عليه.

﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ﴾؟

أين الذين علقتهم بهم الرجاء؟

أين الذين خالفتم الحق طلباً لرضاهم؟

أين القوى التي بدت لكم عصيةً على الزوال؟

أين من بعتم ضمائركم لتبقوا قريبيين من موائدهم؟

ما أسرع ما تتبخر الآلهة حين تنتهي الوظيفة التي صنعها الوهم لها. لقد كانت كبيرة داخل الخوف، فلما زال الخوف ظهرت بحجمها الحقيقي: مخلوقات عاجزة تقف في المحشر محتاجةً إلى النجاة.

﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾.

حتى في مشهد الانكشاف يحاولون الاحتماء بالإنكار. لقد صار الكذب جزءاً من بنيتهم النفسية حتى لجؤوا إليه حيث لا ينفع. عاشوا طويلاً يصنعون لأنفسهم الرواية التي يريدونها، حتى إذا حشروا أمام الحقيقة حاولوا إنتاج رواية أخيرة.

﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

إنهم لم يكذبوا على غيرهم فقط، بل على أنفسهم. وهذه أخطر مراحل الكذب: أن يخسر الإنسان الشاهد الداخلي، فلا يعود في نفسه موضع يعترف فيه بالحقيقة. يكرر الوهم حتى يتحول إلى بيت يسكنه، ثم يدافع عن جدرانه ولو كانت تنهار عليه.

وضل عنهم ما كانوا يفترون؛ غابت الآلهة، وسقطت الأعذار، وتلاشت الأسماء الكبيرة. ولم يبق إلا الإنسان وعمله، عاريين من كل زخرف.

وهنا تبلغ رسالة الفصل تمامها: الولاية لغير الله تبدأ وعدًا بالأمان، لكنها تنتهي بالخذلان. وحدها ولاية الله تحرر القلب؛ لأنها تربطه بمن لا يزول، ولا يعجز، ولا يجوع، ولا يموت، ولا تضيع عنده شكوى، ولا يُخلق في وجه عبده باب الرحمة.

وكل ولاية تنازعها إنما تأخذ من الإنسان بقدر ما تعده أن تعطيه؛ أما ولاية الله فتعيد إليه نفسه بعدما بددها الخوف بين الأرباب.

الفصل الخامس

حين يسمع الإنسان القرآن ولا يصل إليه

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ).

قد تكون المسافة بين الإنسان والقرآن مقدار شبر، ثم تكون المسافة بين قلبه ومعناه أبعد من المشرقين. يجلس قريباً من النبي ﷺ، يسمع التلاوة بصوتها العربي المبين، وتصل الكلمات إلى أذنه؛ لكنها لا تنفذ إلى موضع الفقه في داخله.

إن الاستماع حدثٌ حسي، أما الفقه فاستجابةٌ كاملة تشترك فيها سلامة الفطرة وصدق الإرادة. وليس كل من التقط الصوت قد أصغى، ولا كل من فهم المعنى اللغوي قد سمح له أن يحاكم حياته.

كانوا يستمعون، لكنهم لم يأتوا ليتعلموا. جاءوا يبحثون عن ثغرة، أو يلتقطون عبارةً يعزلونها عن سياقها، أو ينتظرون نهاية التلاوة ليعيدوا إنتاج الاتهام القديم. وحين يدخل الإنسان إلى النص وقد كتب حكمه قبل قراءته، فلن يخرج منه إلا بما دخل به.

﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾.

الأكنة أغشية تحول دون الفقه، والوقر ثقل في السمع. وذلك جزاء الإعراض المتكرر؛ فقد اختاروا أولاً ألا ينتفعوا، فكان مآل اختيارهم أن حيل بينهم وبين الانتفاع. إن الله لا يظلم أحداً، ولكن القلب الذي يرد النور مرةً بعد مرة قد يُعاقب بأن يفقد القدرة على رؤيته.

فالحرمان الكبير لا يبدأ دائماً بإغلاق الباب، بل بأن يبقى الباب مفتوحاً ولا تعود النفس راغبةً في دخوله. يقرأ الإنسان الآية التي كانت تهز قلبه فلا يتحرك فيه شيء، ويسمع الموعظة التي كانت تردعه فتغدو صوتاً مألوفاً؛ لأن المعصية لم تعد فعلاً يقع منه، بل صارت حاجزاً يتكون فيه.

وما أقسى أن يفقد المرء حساسيته تجاه الوحي وهو يظن أن قرب اللفظي منه كافٍ! فقد يحمل المصحف ولا يحمل ميزانه، ويحسن التلاوة ولا يسمح للآية أن تعترض طريق هواه. عندئذ تتحول الألفة التي كان ينبغي أن تزيد بصيرةً إلى غطاءٍ يمنعه من الدهشة، فيمر بالنداء الإلهي كما يمر بشيء يعرف صوته ولم يعد يسمع معناه.

الجدل الذي لا يريد الحقيقة

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ﴾.

لم يأتوا يسألون، بل يجادلون. والسؤال يفتح نافذةً للمعرفة، أما الجدل حين يفسده الهوى فيقيم جداراً يحمي الموقف السابق. يبدو صاحبه كأنه يناقش الفكرة، بينما هو في الحقيقة يدافع عن ذاته من تبعاتها.

ليست كل مناظرة طريقاً إلى الحق؛ فقد تتحول القدرة على الكلام إلى وسيلة متقنة للهروب. وكلما ازداد الإنسان براعةً في الخصومة، ازداد خطر أن يستخدم ذكائه في تزيين خطئه. فالجاهل قد ينكشف له جهله فيتعلم، أما المجادل الماهر فيستطيع أن يبني حول جهله قصرًا من المصطلحات ثم يسكنه مطمئنًا.

قالوا: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾.

لم يناقشوا مضمون القرآن، بل وضعوا عليه ملصقًا يعفيهم من مناقشته. وهذه من أقدم حيل العقل المنحاز: سمّ الفكرة باسم منفر، ثم تعامل مع الاسم كأنه ردٌّ عليها. فإذا نجح اللقب في إثارة النفور، لم يعد الجمهور يطالب بالدليل.

لكن وصف البحر بأنه سراب لا يجفف ماءه، وتسمية الوحي أسطورة لا تنزع عنه حقيقته. إنهم لم يصفوا القرآن كما هو، بل وصفوا حاجتهم النفسية إلى إبعاده.

ينهون عنه وينأون عنه

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأُونَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

لم يكتفوا بالابتعاد؛ أرادوا أن يبتعد الآخرون أيضًا. فالإنسان الذي لا يطمئن إلى موقفه قد يزعه أن يرى غيره يهتدي إلى ما رفضه؛ لأن إيمان الآخر يتحول إلى مرآة تكشف اختياره.

ولهذا يحاول الباطل أن يحاصر الحقيقة اجتماعيًا، لا أن يرفضها فرديًا فقط. ينهى عنها، ويشوّه حاملها، ويزرع حولها الخوف؛ لأنه يدرك أن الكلمة إذا وصلت إلى القلوب بلا حواجز قد تهدم ما بناه في سنوات.

(وَيَنَاقُونَ عَنْهُ).

إنها حركة مزدوجة: يمنعون الناس، ويحرمون أنفسهم. يتولون حراسة السجن الذي يعيشون فيه، ويظنون أنهم يحاصرون الرسالة بينما هم يحاصرون أرواحهم خارج مداها.

(وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ).

الحق لا يهلك حين يرفضه الناس؛ إنما يهلك الرافضون. الشمس لا تخسر شيئًا إذا أغلق المرء نافذته، لكن الغرفة هي التي تغرق في الظلام. والوحي لا تنقص قيمته إذا أعرض عنه جيل، وإنما يفقد الجيل فرصته في أن يرى نفسه والعالم بنوره.

(وَمَا يَشْعُرُونَ).

وهنا عمق المأساة: أنهم يهدمون أنفسهم وهم يظنون أنهم يحسنون التدبير. فالخسارة التي يشعر بها الإنسان قد تدفعه إلى النجاة، أما الخسارة التي يتوهمها نصرًا فتستمر حتى النهاية.

أمنيةٌ تولد على حافة النار

(وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ).

ينتقل المشهد فجأةً من مجلس الجدل إلى حافة النار. سقطت الألقاب التي ألصقوها بالقرآن، وانتهت القدرة على تحويل الحقائق إلى مواد للسخرية. وها هم يرون ما كانوا يصفونه بأساطير الأولين حاضراً أمامهم.

عندئذ تولد الأمنية: (يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ).

ما أيسر الإيمان حين تنتهي مساحة الاختيار! وما أوضح الحقيقة حين تصبح مشهداً لا يمكن إنكاره! لكن قيمة الإيمان كانت في أن يصدقوا خبر الله قبل أن يروا العاقبة بأعينهم، وأن يقاوموا غواية المألوف وهم قادرون على العصيان.

إن الدنيا موطن العمل؛ لأنها دار الحجاب النسبي الذي يُمتحن فيه الصدق. أما الآخرة فدار ظهور، وحين ينكشف الغيب لا يعود التصديق به هو الامتحان.

كانوا في الدنيا يطلبون آيةً محسوسة، فإذا بهم عند النار لا يطلبون دليلاً جديداً، بل يطلبون عمراً جديداً. لقد عرفوا متأخرين أن المشكلة لم تكن في قلة البراهين، وإنما في إضاعة الزمن الذي كان يمكنهم أن يستجيبوا فيه لها.

وما أشد رهبة كلمة ﴿نُزِدُ﴾! إنهم لا يطلبون مالاً ولا نفوذاً ولا عمراً أطول للمتعة؛ يطلبون لحظة التكليف التي كانوا يفرون منها. فما كان يبدو قيداً في الدنيا ظهر لهم في الآخرة بوصفه الفرصة الكبرى.

ما أخفته النفس ظهر

﴿بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

تكشف الآية أن أمنيته لم تكن توبةً خالصة، بل انفعالاً تحت ضغط العقوبة. بدا لهم ما كانوا يخفون: الحقائق التي دفنوها، والنيات التي سترها الجدل، والمعرفة التي أنكروها حفاظاً على مصالحهم.

إن الإنسان يستطيع أن يخفي الحقيقة عن الناس، وقد ينجح زمناً في إخفائها عن وعيه الظاهر، لكنه لا يستطيع إعدامها. تبقى في الأعماق، وتنتظر اللحظة التي تسقط فيها الحجب.

﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا﴾.

ليس كل ندم تغييراً. قد يكره الإنسان نتيجة فعله ولا يكره الفعل نفسه، وقد يتمنى النجاة من الألم دون أن تتبدل القيم التي قادته إليه. ولو عاد بالتركيب النفسي ذاته، والرغبات ذاتها، والكبرياء ذاته، لأعاد إنتاج الطريق نفسه.

فالتوبة ليست رغبةً في إزالة العقوبة فحسب؛ إنها إعادة بناء للإرادة. أن يتغير موضع الحق في القلب، وأن يكره الإنسان المعصية لأنها معصية لربه، لا لأنها فقط انتهت إلى وجع.

الحياة التي حُصرت في التراب

﴿وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾.

هنا يظهر الجذر الذي نبتت منه اختيارات كثيرة: إنكار الآخرة. فإذا أُغلقت نافذة البعث، انحصر الوجود في لحظة قصيرة، وصار الفوز هو أن يأخذ الإنسان أكبر نصيب منها، ولو عبر جراح الآخرين.

إن الإيمان بالآخرة لا يضيف يومًا إلى التقويم فحسب، بل يعيد تشكيل معنى كل يوم. يجعل الأمانة رابحةً ولو خسرت بها مصلحة، والظلم خاسرًا ولو شُيّد به قصر، والصبر استثمارًا لا ألمًا ضائعًا، والموت انتقالًا لا إعدامًا.

أما حين تُختزل الحياة في الدنيا، تصبح القيم معرضةً لأن تُباع عند أول تعارض مع المنفعة. فما الذي يمنع القوي من الظلم إذا ضمن الإفلات من قانون البشر؟ وما معنى التضحية إذا كانت نهاية الضحية والجلاد حفرةً واحدة بلا حساب؟

إن الآخرة هي الامتداد الذي يستقيم به ميزان الدنيا. من دونها تبدو صفحات كثيرة من التاريخ ناقصة: ظالم مات في فراشه، ومظلوم مات قبل أن يسمع اعتذارًا، وصالح غادر مجهولًا، وفاسد أحاطت به الأوسمة. لكن الكتاب لم يُغلق بعد؛ فالدنيا فصل، وليست الرواية كلها.

حين يقفون بين يدي الحقيقة

(وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يُوقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ).

كانوا يقولون في الدنيا: ما نحن بمبعوثين. فلما وقفوا بين يدي الله لم تبق للشبهة بقية: (بَلَىٰ وَرَبِّنَا).

القسم الذي امتنعوا أن يصدقوا به في الدنيا جاء في الآخرة، لكنه جاء بعد انتهاء زمن النجاة. وما أبعد المسافة بين اعترافين: اعتراف يُقال في دار العمل فينقذ صاحبه، واعتراف يُقال في دار الجزاء فلا يغير ما مضى.

(أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ)؟

السؤال لا يطلب معلومة، بل يقيم الحجة ويكشف سقوط كل إنكار. الحقيقة التي عاشوا يهربون منها صارت هي المكان الذي يقفون فيه. لم تعد فكرة قابلة للجدل، بل وجوداً محيطاً بهم.

وهنا نفهم أن الإنسان لا يملك أن يلغي الحق؛ إنما يملك فقط أن يؤجل اعترافه به. إما أن يعترف اليوم مختاراً، فيعيد بناء حياته على ضوءه، أو يعترف غداً مضطراً، حين لا يبقى للاعتراف أثر في المصير.

الخسارة عند مجيء الساعة

(قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ).

لم تقل الآية: سيخسرون فقط، بل (قَدْ خَسِرَ). فالخسارة بدأت منذ تكذيبهم، وإن لم يروا كشف الحساب بعد. فمن يسير إلى الهاوية قد يكون في أول الطريق، لكنه دخل مسار الخسارة بالفعل.

(جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً).

إنها تأتي بغتة لأن الإنسان، مهما عرف أنها آتية، يعيش أحياناً كأن بينه وبينها عهداً بالتأجيل. يرى الموت يطرق أبواب الآخرين، ثم يستثني نفسه شعورياً من القانون. يؤجل التوبة، ورد الحقوق، والكلمة التي ينبغي أن يقولها؛ كأن العمر خزان يملك مفاتيحه.

ثم تأتي الساعة فلا تستأذن مشروعا لم يكتمل، ولا تنتظر خصومة حتى تُحل، ولا تمنح الإنسان يوماً إضافياً ليرمم ما أفسده في أعوام.

(يَا حَسْرَتْنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا).

التفريط ليس مجرد ترك؛ إنه إضاعة ما كان ثميناً بين اليدين. كانت الساعات تمر وفي كل واحدة إمكانية للنجاة، لكنهم عاملوها كأنها رخيصة، حتى انتهى الزمن وارتفعت قيمته في قلوبهم حين لم يعد منه شيء.

ثم تتجسد الأعمال: (وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ).

ما كانوا يعدونه أفعالا عابرة صار حملاً. الكلمة التي قيلت ثم نسيها صاحبها لم تختف، والظلم الذي طوته الأيام لم يمت، والذنب الذي خف على النفس لحظة ارتكابه ظهر بثقله الحقيقي.

إن الأعمال لا تفنى بانتهاء لحظتها؛ إنها تنتقل من صورة الحركة إلى صورة الأثر، ومن صفحة الزمن إلى سجل المصير.

حين تنكش الدنيا إلى حجمها

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

لا تدم الآية الحياة من حيث هي مزرعة للعمل وموضع للاستخلاف؛ وإنما تكشف حقيقتها حين تُتخذ غايةً نهائيةً، وتُنسى الآخرة وراء زينتها. عندئذ تنكش أعظم صراعاتها إلى لعب، وأشد مشاغلها إلى لهو؛ لأنها استهلكت العمر فيما لا يبقى.

اللعب فعل يستغرق صاحبه ثم ينتهي دون ثمرة توازي ما أخذه، واللهو ما يشغل عن الأهم. وهكذا تصبح الدنيا حين تشغل الإنسان عن مصيره: كبيرةً وهو داخلها، صغيرةً حين ينظر إليها من نهايتها.

كم من شيء بكى الإنسان لأنه فاتته، ثم مضت أعوام فعجب من حزنه عليه! وكم من خصومة ملأت قلبه حتى لم تترك فيه موضعاً للسكينة، ثم تضاءلت حتى لم يعد يذكر سببها! تلك صورة مصغرة مما سيقع للدنيا كلها حين تُرى من الآخرة.

﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾.

لم يقل القرآن إن الدنيا لا قيمة لها؛ فقيمتها عظيمة من حيث إنها الطريق إلى الآخرة. لكنه يرفض أن يتحول الطريق إلى غاية، وأن ينشغل المسافر بزخرفة محطة قصيرة حتى تفوته الوجهة.

والتقوى هي أن يعيش الإنسان هنا وفي قلبه ميزان هناك. يأكل ويعمل ويبني ويحب، لكنه لا يسمح لشيء زائل أن يشتري منه أبديته. يمسك الدنيا بيده، ولا يتركها تغلق أصابعها على قلبه.

(أَفَلَا تَعْقِلُونَ).

إن الإيمان بالآخرة ليس هروباً من العقل، بل تمام استعماله. فمن العقل أن يقارن الإنسان بين الزائل والباقي، وبين لذة ساعة ونتيجتها، وبين مكسب قريب وخسارة لا تنتهي.

العقل الذي لا يرى إلا الحاضر ليس كامل الرؤية؛ إنه كعين تبصر الخطوة التي أمامها ولا ترى الهاوية بعدها. أما الوحي فيمنح العقل امتداده الأبعد، حتى يحاكم اللحظة بما ستؤول إليه، لا بما تمنحه الآن فقط.

وهكذا ينتهي هذا المقطع بعد أن كشف سيرة الهروب كاملة: استماع بلا فقه، وجدال بلا طلب للحق، ومنع للآخرين، وإنكار للبعث، ثم اعتراف متأخر وحسرة ثقيلة.

لقد كان القرآن قريباً من آذانهم، لكنهم أبعدوا قلوبهم عنه. وحين اقتربت منهم الآخرة، لم يعد البعد ممكناً. فالإنسان يستطيع أن ينأى عن الآية زمناً، لكنه لا يستطيع أن ينأى عن اليوم الذي أخبرته به.

الفصل السادس

الرسول الذي يحزن لأنهم لا يبصرون

(قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ).

بعد أن كشفت السورة مواقف المكذبين، التفت الخطاب إلى قلب النبي ﷺ. فالرسالة لم تكن معركة أفكار باردة؛ كان النبي يرى قومه يسيرون إلى الهلاك، ويحمل لهم من الرحمة ما يجعل إعراضهم جرحاً في قلبه.

(قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ).

في العبارة مواساة تسبق التوجيه. الله يعلم حزنه؛ يعلم وطأة الكلمات التي يسمعها، وثقل التكذيب على نفس لم ترد لقومها إلا النجاة. وليس في الحزن نقص في اليقين؛ فقد يحزن المؤمن وهو ثابت، وتتألم نفسه دون أن يضطرب طريقه.

إن القلوب الكبيرة هي التي تتعب من ضلال الآخرين، لا شماتة بهم، بل خوفاً عليهم. أما القلب الميت فقد يرى الناس يقتربون من الهاوية ثم ينشغل عنهم بسلامته الخاصة.

كان النبي ﷺ يستطيع أن يعاملهم بمثل ما عاملوه، لكنه لم يكن صاحب خصومة شخصية. لقد كان يرى خلف الإساءة إنساناً يخسر نفسه، وخلف

السخرية روحًا خلقت لله ثم تضل الطريق إليه. لذلك كان ألمه رحمة، وكان حزنه شاهدًا على أن الدعوة لم تتحول في قلبه إلى معركة انتصار للذات.

ثم تضع الآية الحقيقة في موضعها: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

كانوا يعرفون صدقه قبل الرسالة، ويأتمنونه على أموالهم، ولم يكن في تاريخه ما يمنحهم حجةً لاتهامه بالكذب. لم تتغير أمانته حين نزل عليه الوحي؛ الذي تغير أن صدقه صار يطالبهم بهدم الباطل الذي تقوم عليه مكانتهم.

لم تكن المشكلة في شخص الرسول، وإنما في الرسالة التي يحملها. كانوا يستطيعون قبول محمد الأمين ما دام صدقه لا يمس أصنامهم، لكنهم حين سمعوا منه أن الإله واحد، وأن الناس عبيد لله سواء، وأن السيادة للوحي لا للأهواء؛ صار الصادق في خطابهم ساحرًا أو شاعرًا أو مجنونًا.

وهكذا يفعل الجحود: لا يكتفي برفض الحقيقة، بل يعاقب حاملها على أنه كشفها. قد يعرف الناس نزاهة الرجل، ثم يشوهونه حين تهدد كلمته مصالحهم؛ لأنهم لا يستطيعون إسقاط الفكرة بالحجة، فيحاولون إسقاط صاحبها بالاتهام.

لكن الآية ترفع عن كاهل الداعية بعض الألم: إن قضيتهم ليست معك في حقيقتها؛ إنها مع آيات الله. فلا تجعل رفضهم حكمًا على صدقك، ولا تسمح لألسنتهم أن تعيد تعريفك في وعيك.

ليس كل من اتُّهم مذنَّبًا، ولا كل من اجتمع الناس على تشويهه فاقْدًا للحق. قد تكون التهمة أحيانًا الثمن الذي يدفعه الصادق لأنه رفض أن يتواطأ مع الكذب.

طريق الرسل ليس مفروشا بالتصديق

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَاِ الْمُرْسَلِينَ﴾.

لا تقول الآية إن الرسل كُذِّبوا فحسب، بل إنهم صبروا على التكذيب والأذى. فطريق الحق لا يمر دائمًا عبر الاعتراف السريع بفضله؛ كثيرًا ما يمر أولاً عبر سوء الفهم، والتهمة، والعزلة، ومحاولة الإخراج من المجال العام.

إن الرسالة التي تهز بنية الباطل تستدعي مقاومتها. والباطل حين يكون عميقًا في المجتمع لا يدافع عن نفسه بالحجة وحدها؛ يستدعي النفوذ والعادة والخوف والمصلحة، ويحاول أن يجعل صاحب الحق يشعر بأنه وحده، وأن كثرة المخالفين برهان على خطئه.

لهذا جاء تاريخ الرسل تثبيتًا. لم يكن التكذيب حادثًا يدل على فشل الرسالة، بل مرحلة مر بها أنقى البشر وأصدقهم. فلو كانت سلامة الطريق تقاس بخلوه من الأذى، لكان الرسل أولى الناس بطريق بلا أشواك؛ لكن الله ربّاهم بالصبر، وأقام بهم حجة أن الحقيقة لا تُعرف براحة حاملها.

(حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا).

لنصر موعد لا يصنعه استعجال الإنسان. يأتي بعد أن يؤدي الحق وظيفته في النفوس، وتتميز الصفوف، وتنضج القلوب لحمل الأمانة. قد يتأخر في حساب الزمن البشري، لكنه لا يتأخر عن الحكمة التي قُدر بها.

والمؤمن يريد النصر لأنه حق، لكن الله يريد مع النصر إنساناً مؤهلاً له. فلو جاء التمكين إلى نفوس لم تهذبها المحنة، ربما حملت معها إلى مقاعد القوة أمراض المرحلة السابقة. لذلك يصنع الصبر في الداخل ما سيحتاج إليه صاحبه في الخارج: يحرره من العجلة، ويصفي نيته، ويعلمه أن النصر ليس ملكاً شخصياً، بل أمانة.

(وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ).

قد تتبدل الموازين الظاهرة، لكن كلمة الله لا تتبدل. وعده حق، وخبره صدق، وسننه لا تلغيها ضوضاء المرحلة. قد يبدو الباطل طويل العمر؛ لأنه يحتل المشهد كله، لكنه يعيش داخل الأجل الذي ضربه الله له.

إن المؤمن لا يتكىء على التفاؤل النفسي وحده، بل على خبر الله. والتفاؤل قد يضعف حين تثقل الوقائع، أما الوعد الإلهي فلا يتغير بتغير المشاعر.

لا تَهْلِكْ نَفْسَكَ بَحْثًا عَنْ مَنَفَذٍ إِلَى قُلُوبٍ مَغْلَقَةٍ

(وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سَلْمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بَأْيَةٌ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ).

كبر على النبي ﷺ إعراضهم؛ لأن رحمته كانت أكبر من أن ترى الضالين بلا ألم. لكنه لا يملك أن يحفر نفقاً في الأرض أو يصعد سلماً إلى السماء ليأتيهم بالآية التي يتوهم أنها ستكسر عنادهم.

ليست المشكلة في قلة الآيات. فالكون آية، والقرآن آية، وشخص الرسول وصدقه آية، وتاريخ الأمم آية. لكن من قرر ألا يرى يستطيع أن يقف بين العلامات كلها ثم يسأل: أين الدليل؟

وهنا يرسم القرآن الحد الفاصل بين مسؤولية الداعية ومسؤولية المدعو. على الداعية أن يبين، ويحسن، ويصبر، ويخلص؛ لكنه لا يملك أن يقتحم القلب. الهداية بيد الله، والإنسان مسؤول عن استجابته.

إن محاولة حمل الناس على الهدى فوق حدود القدرة قد تتحول إلى استنزاف للنفس، وربما دفعت صاحب الرسالة إلى التنازل عن شيء من الحق بحثاً عن استجابتهم. لذلك يعلمه القرآن أن يبذل كل ما يملك، ثم يقف عند الحد الذي لا يملكه.

ليس نجاح الكلمة في أن يصفق لها الجميع، بل في أن تُقال كما أرادها الله. وقد ترفضها القلوب اليوم، ثم تظل تعمل في الأعماق حتى يأتي وقتها. ورب كلمة ظن أنها ضاعت، فإذا بها بعد أعوام تخرج من ذاكرة سامعها كالماء من صخرة قديمة.

(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى).

الله قادر على أن يجعل الناس أمةً مؤمنة لا تختلف، لكنه شاء أن تكون الدنيا دار ابتلاء واختيار، وأن يظهر صدق الإنسان من موقفه الحر من الوحي. فلا

ينبغي لصاحب الحق أن يستغرب وجود الضلال كأنه دليل على ضعف الحقيقة؛ فالاختيار هو الذي يمنح الإيمان قيمته الأخلاقية.

من الذي يسمع حقًا؟

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾.

ليس المقصود بالسمع مجرد حركة الأذن؛ فقد كان المكذبون يسمعون الألفاظ. السمع هنا قابلية القلب للاستجابة، أن تدخل الكلمة إلى الداخل فلا تواجه جيشًا من الأعذار قبل أن تبلغ معناها.

هناك أذان مفتوحة وقلوب مغلقة، وهناك من يسمع الصوت ولا يسمع النداء. إن الكلمة ذاتها تمر على قلبين: فتوقظ أحدهما، ولا تترك في الآخر أثرًا. الفارق ليس دائمًا في قوة البيان، بل في حياة المحل الذي يستقبله.

أما الذين ماتت قلوبهم باختيارهم وإصرارهم، فيبعثهم الله يوم القيامة، ثم يرجعون إليه. والمقابلة شديدة الدلالة: من لم ينتفع بحياة القلب في الدنيا سيُبعث بجسده في الآخرة ليرى ما أغلق قلبه عنه.

اقتراح الآيات لا ينتهي

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

كأن القرآن نفسه ليس آية! وكأن خلقهم والسماء فوقهم والأرض تحتهم لا تكفي! يطلبون آيةً على مقاس اقتراحهم، لا لأن الله عجز عن إنزالها، بل لأنهم يجهلون حكمة الآيات وعواقب التكذيب بها.

إن الله قادر، لكن القدرة الإلهية لا تجري تبعاً لعبث المقترحين. ليس كل ما يطلبه الإنسان موافقاً للحكمة، ولا تُدار الحقيقة وفق الشروط التي يضعها المكذب كلما ضاق بالدليل القائم.

قد يتوهم المرء أن الله لو أعطاه علامةً مخصوصة لآمن، بينما تكشف حياته أنه تجاوز عشرات العلامات دون أن يقف. فالمشكلة ليست دائماً في غياب العلامة التي يطلبها، بل في غياب القلب الذي يحسن قراءة ما أُعطي.

أُمَمٌ تَمْشِي وَتَطِيرُ

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ).

تفتح السورة نافذةً على عالم كان الإنسان يمر به دون أن يرى عمقه. الدواب التي تدب، والطيور التي تشق الهواء، ليست نقاطاً متناثرة في مشهد الكون؛ إنها أُمَم لها أنماطها، وأرزاقها، وصلاتها، وتدبيرها الذي أحاط به علم الله.

(إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ).

في العبارة كسرٌ لكبرياء الإنسان الذي يتوهم أنه وحده مركز العناية. فحولنا عوالم كاملة لا نعرف من أسرارها إلا القليل. نرى سرباً يعبر السماء، ولا نرى خرائط الهداية المودعة فيه؛ ونسمع طائراً في الصباح، ولا نعلم اللغة التي ينظم بها وجوده.

والتعبير (يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ)، مع أن الطيران معلوم بالجناحين، يعيد المشهد إلى العين كأنها تراه الآن: جناحان صغيران يحملان مخلوقاً في فضاء واسع، وفق نظام لم يصنعه الطائر لنفسه.

إن الكون ليس مهملاً. لكل مخلوق موضع في علم الله، ونصيبه من الرزق، وحدود في نظام الحياة. وإذا كانت الدابة في شقها والطائر في جوه لا يخرجان عن تدبيره، فكيف يظن الإنسان أن قصته سقطت من العناية؟

(مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ).

لا يضيع شيء من علم الله وتقديره وكتابته. ما يبدو لنا صغيراً ليس صغيراً عن الإحصاء الإلهي، وما يغيب عن أعيننا لا يغيب عن علمه. ثم إلى ربهم يحشرون؛ فالوجود كله عائد إلى من أنشأه.

صَمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ

(وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ).

هم يسمعون بأجهزتهم، لكنهم صم عن الاستجابة؛ ويتكلمون كثيراً، لكنهم بكم عن كلمة الحق. ثم إنهم ليسوا في ظلمة واحدة، بل (فِي الظُّلُمَاتِ): ظلمة الهوى، وظلمة التقليد، وظلمة الكبر، وظلمة الخوف على المصالح.

تتراكب الظلمات حتى لا يعود الإنسان قادراً على تمييز الجدار من الطريق. وقد يكون شديد الثقة بنفسه، لكن ثقته لا تصنع نوراً. فالتائه الذي يسرع في الظلام لا يقترب من النجاة؛ ربما ابتعد عنها بسرعة أكبر.

والهداية بيد الله، يضل بعدله من أعرض واستحب العمى، ويجعل على صراط مستقيم من صدق في طلبه وقبل هداه. فلا يستغني القلب عن دعاء الله أن يثبتته؛ لأن المعرفة وحدها لا تعصم صاحبها إذا تركه الله إلى نفسه.

الدعاء الذي يعري الشرك

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٠١﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ).

تضعهم السورة أمام ساعة يسقط فيها التمثيل: عذاب يحل، أو ساعة تأتي، أو ضر يقطع حبال الوهم. عندها، أيدعون أصنامهم حقاً؟ أيتجهون إلى من كانوا يزعمون لهم سلطاناً؟

(بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ).

في قاع الفطرة معرفة توحيدية قد تغطيها العادة، لكنها تتكشف عند الخطر. حين تهتز السفينة وتسقط قدرة الإنسان على التحكم، لا يبحث القلب عن خطاب فلسفي طويل؛ ينطلق إلى الله.

الشدائد تنزع عن النفس زينتها الفكرية، وتعيدها إلى حقيقتها: عبدٌ ضعيف ينادي رباً قادراً. وتنسى ما كانت تشرك؛ لأن الأصنام لا تعيش إلا في مساحة الوهم، فإذا حضر الخطر الحقيقي ظهرت هشاشتها.

لكن المأساة أن بعض الناس إذا كشف الله عنهم الضر عادوا فبنوا الحواجز التي هدمتها المحنة. كانت الشدة لحظة بصيرة، فلما جاء الأمان غطتها الغفلة من جديد.

لماذا تأتي البأساء والضراء؟

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَاسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾.

ليست كل شدة علامة هوان؛ قد تكون نداءً رحيماً إلى قلب غفل. حين لا توقظه الكلمة، تهزه الحادثة. وحين ينسى ضعفه في الرخاء، تذكره الضراء بحقيقته.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾.

التضرع انكسار صادق بين يدي الله، لا انكسار مهانة للمخلوق. إنه رجوع القلب من غروره، واعترافه بأنه لا يملك مفاتيح كل شيء. وقد تكون الشدة رحمة مؤلمة إذا أعادت الإنسان إلى ربه قبل أن يصل إلى نهاية لا رجوع منها.

لكن الألم لا يهدي بذاته؛ فقد يلين قلباً ويقسي آخر. ومن هنا يأتي السؤال الموجه: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

كان ينبغي أن تكسر الشدة قسرتهم، لكنها كشفت أن القسوة بلغت موضعاً جعل الألم نفسه عاجزاً عن فتح القلب. بدل أن يسألوا: ماذا ينبغي أن نراجع؟ بحثوا عن مبررات تبقي حياتهم على حالها.

وقسوة القلب ليست غياب الدموع فقط؛ قد يبكي الإنسان من وجعه ويبقى قاسياً عن الحق. القسوة أن تمر به الرسالة فلا تغيره، وأن يرى آثار خطئه ثم يصبر عليه، وأن يفسر كل تنبيه بطريقة تعفيه من المراجعة.

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

لم يأمرهم الشيطان دائماً بالشر باسمه القبيح؛ زينّه. أعاد تسمية الكبر كرامة، والعناد ثباتاً، والظلم حزمًا، والتعصب وفاءً، والفرار من الحق استقلالاً. إن أخطر الشرور ما دخل النفس في هيئة فضيلة.

الاستدراج: حين تُفتح الأبواب كلها

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾.

هذه من أكثر صور العقوبة خفاءً؛ لم تُغلق الأبواب، بل فُتحت. جاء المال، واتسعت القوة، وتدفقت المتع، فظنوا أن رخاءهم دليل صحة طريقهم. لم يدركوا أن النعمة إذا لم تُقابل بالشكر قد تتحول إلى حبل استدراج يطول حتى يبلغ أجله.

﴿أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

مشهد وفرة يغمرهم من الجهات كلها. ولم تقل الآية إنهم حمدوا، بل قالت: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾.

إنه فرح البطر والاغترار، لا فرح الشكر. تعلقوا بالعطاء حتى نسوا المعطي، ورأوا النعمة شهادة استحقاق ذاتي لا أمانة واختباراً. وهنا صار الاتساع أشد

خطرًا من الضيق؛ فالضيق كان يمكن أن يوقظهم، أما الوفرة فخدّرت إحساسهم بالحاجة.

ليس كل فتحٍ رضا، كما أن ليس كل منعٍ غضبًا. والميزان ليس مقدار ما في اليد، بل حال القلب تجاه ما فيها. قد يعطي الله العبد فيزداد قربًا، وقد يُفتح عليه فيزداد غفلةً حتى يحمل سبب سقوطه وهو يظنه جناحًا.

(أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً).

أنت النهاية في ذروة الفرح، حين اكتملت لديهم الثقة بأن الأمور تسير لصالحهم. لم يروا الخطر؛ لأن النجاح الظاهر غطى الشقوق الداخلية. ثم انطفأ المشهد دفعةً واحدة:

(فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ).

سكنت الحجة، وانقطع الرجاء، وحل الذهول مكان البطر. وتلك عاقبة أمة لم تفهم رسائل الضراء، ثم أساءت قراءة رسائل الرخاء.

(فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ).

ينتهي المشهد بالحمد كما بدأت السورة بالحمد. قد يبدو لأول وهلة غريبًا أن يأتي الحمد بعد هلاك قوم، لكنه حمدٌ على زوال الظلم، وعلى نجاة الأرض من نظام أفسدها، وعلى ظهور عدل الله بعد أن ظن الطغاة أن الإمهال نسيان.

فالحمد ليس احتفالًا بالألم، بل اعتراف بأن قطع دابر الظلم رحمة بالعالمين. لقد كان بقاءه يعني استمرار سحق الضعفاء، وتزييف الحقائق، وإغلاق طرق الهداية.

وهكذا تعلّمنا السورة أن نقرأ الحياة بميزان أعمق: قد تكون الشدة رسالة إنقاذ، وقد تكون الوفرة استدراجًا؛ وقد يتأخر النصر لأن الله يصنع له رجاله، وقد يعلو الباطل حتى يظن أنه بلغ الأمان، بينما يكون قد بلغ الموعد.

وما بين الضراء والرخاء يبقى السؤال واحدًا: هل أعادتكم الحال إلى الله، أم أبعدتكم عنه؟ فليست العبرة بما دخل إلى حياتكم من النعم أو الآلام، بل بما خرج به قلبك منها.

الفصل السابع

حين يصبح السمع والبصر سؤالاً عن الهداية

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ).

بعد أن فتحت السورة أمام الإنسان كتاب السماوات والأرض، أعادته إلى الأدوات التي يقرأ بها هذا الكتاب: السمع والبصر والقلب. فما قيمة الآيات إذا فقد الإنسان النافذة التي تدخل منها؟ وما قيمة اتساع الكون إن كان في الداخل موضع مغلق لا يصل إليه الضوء؟

السمع ليس ملكاً ذاتياً مضمون البقاء، والبصر ليس حقاً مكتسباً لا يُسلب، والقلب الذي يفهم ويعتبر ليس آلة تعمل بمعزل عن مشيئة الله. إنها عطايا تتجدد في كل لحظة، لكن طول الألفة يجعل الإنسان يتعامل معها كأنها جزء من سلطانه الخاص.

يسمع كل يوم، فينسى أن السمع نعمة. ويرى آلاف الأشياء، فلا يتذكر أن البصر هبة. ويفكر، ثم ينسب قدرته على التفكير إلى نفسه، كأن قلبه هو الذي خلق نوره. لهذا لا تسأل الآية: من أعطاكم هذه القوى أول مرة؟ بل تسأل سؤالاً أشد إيقاظاً: إذا أخذها الله، فمن يعيدها؟

﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ؟﴾

إن الإنسان يعرف قيمة الأشياء حين يفقدها، مع أن الحكمة كانت تقتضي أن يعرفها وهي باقية. لا يدرك نعمة الصوت إلا إذا خفت، ولا نعمة الضوء إلا إذا اسودّت الأشياء أمام عينيه، ولا نعمة القلب الحي إلا حين يرى إنساناً تمر به الحقائق فلا يشعر بها.

والختم على القلب أشد من ذهاب البصر؛ ففاقد البصر يعلم أنه لا يرى، أما فاقد البصيرة فقد يظن نفسه أبصر الناس. العمى الحسي يخلق حاجة إلى من يقود صاحبه، لكن عمى القلب قد يخلق غروراً يمنعه حتى من الاعتراف بحاجته إلى الهداية.

﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾.

تأتيهم الحجة في صورة سؤال، ثم في مشهد كوني، ثم في خبر تاريخي، ثم في نداء إلى الفطرة، ثم في تذكير بالمصير. تتنوع الطرق لأن الرحمة تريد أن تبلغ القلب من كل مدخل.

لكنهم ﴿يَصْدِفُونَ﴾؛ يعرضون وينصرفون. وليست المأساة أن الطريق خفي، بل أن الإنسان يمر بالعلامات كلها ثم يختار الجهة المعاكسة.

العذاب لا يحتاج إلى إعلان مسبق

﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ﴾.

قد يأتي العذاب بغتة فلا يملك الإنسان وقتاً لترتيب أعداره، وقد يأتي جهرة تتقدم علاماته أمام العيون، لكن الظالم يصبر حتى يقع ما كان يُنذر به.

والعذاب ليس اعتداءً على بريء؛ إنه عاقبة الظلم بعد قيام الحجة وتتابع الإنذار. فالله أرحم بعباده من أن يأخذهم بلا بيان، وقد جعل في كل تأخير فرصة، وفي كل موعظة باباً، وفي كل ألم منبهاً؛ لكن من حول الفرص إلى وقود للمزيد من الطغيان لا يلومن إلا نفسه.

إن كلمة (بَعَثَتْ) تهدم وهم السيطرة. فالحياة التي يضع الإنسان خططها لعقود قد تتغير في لحظة. والسلطان الذي يبدو راسخاً قد يهوي قبل أن يكتمل خطاب صاحبه. وما أكثر ما يملأ الإنسان أيامه بتفاصيل بعيدة، ويغفل عن حقيقة قريبة لا يعرف موعدها!

مهمة الرسل: بشارة وإنذار

(وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ).

تجمع الرسالة بين البشارة والإنذار؛ لأنها تخاطب الإنسان كله. تبشّر فيه الرجاء حتى لا يقنط، وتنذره حتى لا يغتر. ولو تحولت الدعوة إلى تخويف مجرد، لانتجت نفوساً مذعورة لا تعرف جمال القرب من الله؛ ولو صارت تطميناً بلا مسؤولية، لانتجت غفلة تنكئ على الرحمة وهي مقيمة على أسباب الهلاك.

الميزان القرآني لا يترك الخوف يلتهم الرجاء، ولا يسمح للرجاء أن يخدر الضمير.

(فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ).

لم يقل: فمن ادعى الإيمان، بل قرن الإيمان بالإصلاح. فالإيمان الذي يدخل القلب لا يبقى خبراً ساكناً؛ يصلح تصور الإنسان، ثم ينساب إلى قوله وعمله وعلاقاته. يعيد بناء ما أفسده الهوى في الداخل، ويدفع صاحبه إلى إصلاح ما يستطيع في الخارج.

الإصلاح ثمرة الإيمان وشاهد حيويته. فقد يحفظ الإنسان كثيراً من ألفاظ العقيدة، لكن معاملته تكشف مركزها الحقيقي في قلبه. من عرف أن الله يسمعه، كيف يطلق لسانه في أعراض الناس؟ ومن أيقن بالوقوف بين يديه، كيف يستهين بحقوق الضعفاء؟ ومن آمن بأن الرزق بيده، كيف يبيع أمانته خوفاً على نصيبه؟

(فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ).

الأمان هنا عظيم: لا خوف مما يستقبلون، ولا حزن على ما تركوا وراءهم. لقد خرجوا من ضيق اللحظة إلى سعة الوعد، ومن قلق المصير إلى طمأنينة الولاية.

أما الذين كذبوا: (وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ).

جاء العذاب بسبب فسقهم وخروجهم المتعمد عن هداية الله، لا لأن أبواب الرحمة ضاقت بهم. لقد كانت الآيات تأتيهم، والبشارة تناديهم، والإنذار يوقظهم، لكنهم اختاروا أن يمضوا خارج الطريق.

الرسول الذي لا يدّعي ما ليس له

﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ﴾.

هذه الآية ترسم نقاء مقام النبوة، وتحميه من الغلو كما تحميه من الجحود. الرسول ﷺ أعظم البشر، لكنه عبد الله ورسوله؛ لا يملك خزائن الله، ولا يعلم من الغيب إلا ما أعلمه الله، ولا يدّعي أنه ملك خارج الطبيعة البشرية.

إن العظمة الرسالية لا تقوم على تضخيم الذات، بل على كمال العبودية. ولذلك يعلن النبي حدود ما يملك بلا حرج؛ لأن الصدق لا يرى في الاعتراف بالحدود انتقاصًا. الذي يحتاج إلى ادعاء ما ليس له هو من بنى مكانته على إبهار الناس، أما الرسول فمكانته مستمدة من صدق البلاغ.

﴿إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ﴾.

هنا سر قوته كله: الاتباع. لم يأت ليصنع دينًا من عبقريته، ولا ليحول تجربته الشخصية إلى تشريع للناس؛ إنه يتبع الوحي. وهذه العبودية للوحي هي التي حررته من عبودية العصر والبيئة والجمهور.

من يتبع أهواء الناس يضطر إلى تبديل خطابه كلما تبدلت رغباتهم، أما من يتبع الوحي فيملك نقطة ثابتة يقيس بها المتغيرات. قد يقف وحده، لكنه لا يكون تائهاً؛ لأن الاتجاه لم تصنعه الكثرة.

وفي الآية ميزان لكل قيادة دينية أو فكرية: قيمتها ليست في قدرتها على إحاطة نفسها بهالة الغموض، بل في أمانتها لما تحمل. وكلما ادعى الإنسان

لنفسه ما لم يمنحه الله، انحرف من مقام الدلالة على الحق إلى بناء سلطة حول ذاته.

هل يستوي الأعمى والبصير؟

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾.

ليس الأعمى هنا فاقد العين، ولا البصير مجرد من يرى الألوان؛ إنما هي بصيرة القلب. قد تكون العينان مفتوحتين، لكن صاحبهما لا يرى من الوجود إلا سطحه: مادة تتحرك، ومصالح تتنازع، وأعمارًا تنتهي. بينما يرى المؤمن وراء الأشياء دلالتها، ووراء النعمة منعمها، ووراء الدنيا آخرتها.

البصيرة لا تعني معرفة تفاصيل الغيب من غير وحي، بل أن يرى الإنسان الأشياء في مواضعها الصحيحة. ألا يضع الزائل في مقام الباقي، ولا السبب في مقام المسبب، ولا رضا الناس فوق رضا الله، ولا لحظة الشهوة فوق مصير الروح.

﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾.

التفكر ليس ترفاً ذهنياً، بل طريق إلى تحرير الرؤية. فكثير من العمى ينشأ من حياة لا تمنح نفسها لحظة لتسأل: إلى أين؟ ينشغل الإنسان بما يحدث، فلا يتدبر معناه؛ يجري مع الجميع، فلا يسأل إن كانت الجهة صحيحة.

وقد ينقذ سؤال صادق عمراً كاملاً من الضياع.

الذين يخافون يوم الجمع

(وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّهُمْ يَتَّقُونَ).

ينتفع بالإنذار من يحمل في داخله شعور المسؤولية. فالذي يخاف الحشر لا يهرب من الآية التي تحذره؛ يستقبلها كرسالة إنقاذ. أما من منح نفسه أمانًا كاذبًا، فإنه يرى الإنذار إزعاجًا لا رحمة.

(لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ).

تسقط يومئذ شبكات النفوذ التي يعتمد عليها الناس في الدنيا. لا قبيلة تحاصر العدالة، ولا مال يشتري الرواية، ولا منصب يفرض على الحق أن يصمت. والشفاعة كلها لله، لا تكون إلا بإذنه ورضاه؛ فلا يملكها أحد استقلالاً عنه.

إن استحضر الحشر لا يعزل الإنسان عن الحياة، بل يطهر علاقته بها. يجعله يعمل دون أن يبيع ضميره للعمل، ويحب دون أن يجعل محبوبه نداءً لله، ويشارك في المجتمع دون أن يذوب في أخطائه.

(لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ).

غاية الإنذار ليست صناعة الرعب، بل صناعة التقوى: أن ينشأ في الداخل حارسٌ يرى الله حين تغيب رقابة البشر، ويمنع صاحبه من الظلم حين يقدر عليه، لا حين يعجز عنه فقط.

لا تطرد الذين يدعون ربهم

﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾.

هنا تمتحن السورة المجتمع المؤمن في ميزان الكرامة. كان بعض المتكبرين يريدون مجلساً لا يجلس فيه الفقراء والضعفاء، كأن قربهم من النبي ﷺ ينبغي أن يخضع لترتيب الطبقات. فجاء الوحي ينحاز إلى القلوب الصادقة، لا إلى الجاه الاجتماعى.

أولئك الذين لا يملكون زينة المجالس كانوا يملكون ما هو أثمن: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾.

تجردت نياتهم لله. يذكرونه في الغداة والعشي، لا ليصنعوا لأنفسهم صورة أمام الناس، بل لأن قلوبهم وجدت وجهتها. قد تكون ثيابهم بسيطة، وأسمائهم بلا نفوذ، لكن السماء تعرف قيمة لا تقيسها الأسواق.

إن المجتمع الجاهلي يزن الإنسان بما يملك، والوحي يزنه بما يريد. هناك من تلمع هيئته وقلبه خاوي، وهناك من يغبر ثوبه وروحه عامرة باليقين.

﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

لكل إنسان حسابه عند الله، وليس لأحد أن يجعل فقر غيره تهمة، أو أن يحاكم إخلاصه بمظهره. وطرد هؤلاء إرضاء للكبراء ليس ترتيباً اجتماعياً عابراً؛ إنه ظلم، لأن فيه إهداراً لكرامة منحها الله للإنسان بالإيمان.

ما أبلغ هذا الميزان! الدعوة التي جاءت لتحرير الناس من عبادة غير الله لا يمكن أن تعيد بينهم آلهة الطبقة والمال. والمسجد الذي يقف فيه الغني والفقير بين يدي رب واحد لا يجوز أن يتحول خارجه إلى مجلس تُشترى فيه الكرامة.

الفتنة التي يكشف بها الله القلوب

(وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ).

كان وجود الفقراء السابقين إلى الإيمان اختباراً للمتكبرين. لم يستطيعوا تصور أن تمر نعمة الهداية من جوارهم إلى أناس يرونهم دونهم منزلة. لقد ظنوا أن التفوق الاجتماعي يمنحهم أولوية عند الله.

(أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا؟)

لم يناقشوا حقيقة الإيمان؛ احتجوا على الأشخاص الذين حملوه. وكأن الحق يفقد قيمته إذا سبق إليه فقير، أو كأن الله ينبغي أن يختار أهل الهداية وفق السلم الذي صنعه المجتمع.

وهذا مرض قديم يتجدد: يرفض الإنسان الكلمة لا لضعفها، بل لأنه يستكثرها على قائلها. يرى نفسه أعلى من أن يتعلم ممن هو أقل منه مالاً أو أصغر سنّاً أو أضعف مكانة. وهكذا يحرم الكبر صاحبه من الحكمة حين تأتية في إناء لا يوافق ذوقه.

(أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ).

الله يعلم القلوب التي تحفظ النعمة، والأرواح التي إذا وصلها النور عرفته وشكرته. الهداية ليست وسامًا تمنحه الطبقات العليا لبعضها، بل فضل يضعه الله حيث يعلم صدق الاستقبال.

سلامٌ يسبق التوبة

(وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ).

بعد النهي عن طردهم، يأمر الله نبيه ﷺ أن يستقبلهم بالسلام. ليس مجرد السماح لهم بالبقاء، بل إكرامهم بكلمة الأمان. لقد أراد المتكبرون إقصاءهم، فأدناهم الوحي، وأرادوا إشعارهم بالدونية، فاستقبلتهم الرسالة بالسلام والرحمة.

(كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ).

تعود هذه الحقيقة كأنها مظلة السورة. إن الرب الذي يريكم لم يجعل طريق العودة متاهةً، بل فتحه بالرحمة. ومن رحمته:

(أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ).

الجهالة هنا ليست غياب العلم بالحكم بالضرورة؛ ففي كل معصية لون من الجهل بالله وبعاقبة الذنب، ولو كان صاحبها يعرف المعلومة. لحظة المعصية لحظة يضيق فيها الوعي، فيقدّم الإنسان لذةً عابرةً على سلامة باقية.

لكن الذنب ليس نهاية الطريق: ﴿ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ﴾.

التوبة رجوع، والإصلاح دليل أن الرجوع لم يكن كلمةً عابرة. يصلح ما أفسد، ويرد ما أخذ، ويعيد بناء الموضع الذي هدمته الخطيئة. فليس من صدق التوبة أن يطلب الإنسان من الله محو الذنب بينما يصر على إبقاء آثاره في حياة الآخرين.

﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

لا يغفر سبحانه على كرهه، تعالى الله عن ذلك؛ بل يغفر برحمته. ولا يعامل التائب أسيراً أبدياً لماضيّه، بل يفتح له مستقبلاً جديداً. فالإنسان ليس هو أسوأ لحظة مرّت به، ما دام قد صدق في العودة وأصلح.

إن الرحمة لا تقول للعاصي: ذنبك صغير؛ بل تقول له: ربك أكبر من ذنبك، فلا تجعل الخجل من السقوط حجةً للبقاء على الأرض.

لماذا تفصّل الآيات؟

﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

ليس تفصيل الآيات ليتضح طريق المؤمنين وحده، بل لكي ينكشف أيضاً طريق المجرمين. فالهداية لا تكتمل بمعرفة الخير مجرداً؛ لا بد من كشف المسالك التي يتسلل منها الباطل، والأسماء التي يتخفى وراءها، والوسائل التي يصنع بها نفوذه.

الإجرام لا يعلن عن نفسه دائماً. قد يرتدي ثوب الحكمة، أو المصلحة، أو حفظ النظام، أو الدفاع عن المقدسات. ولذلك يفصل القرآن الآيات حتى يسقط التتكر، ويظهر الطريق من بدايته قبل أن يصل السائر فيه إلى نهايته.

(وَلِتَسْتَبِينَ): لتظهر بوضوح، لا لتبقى ملتبسة. فالوعي القرآني لا يصنع إنساناً طيب النية فقط، بل بصيراً؛ يعرف أن حسن القصد لا يكفي إذا جهل طرائق التضليل، وأن القلب النقي يحتاج إلى عقل يميز.

وهكذا جمع هذا المقطع بين بصيرة الفرد وعدالة المجتمع: سمع ينتفع بالوحي، ورسول لا يدعي ما ليس له، وإيمان يثمر إصلاحاً، وفقراء يحمي الوحي كرامتهم، وعصاة يجدون باب العودة مفتوحاً، ثم وعي يكشف سبيل المجرمين.

إن النور لا يكتفي بأن يريك الطريق الذي تسلكه؛ يكشف أيضاً الحفرة التي كان الظلام يخفيها.

الفصل الثامن

حين يتحرر الوحي من أهواء البشر

(قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ).

بعد أن فصلت السورة سبيل المجرمين، جاء الإعلان الفاصل: لا عبادة لغير الله، ولا اتباع لأهواء الذين يريدون للوحي أن ينحني أمام تصوراتهم. ولم تقل الآية: لا أتبع آراءكم، بل: (لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ).

لأن الرأي قد ينشأ عن نظرٍ صادق، أما الهوى فهو رغبة تتخذ من العقل محامياً لها. يبدأ الحكم في النفس أولاً، ثم يُستدعى التفكير ليبحث عن الحجج التي تبرره. وهكذا يبدو الإنسان كأنه وصل إلى موقفه بعد بحث، مع أن البحث لم يكن إلا طريقاً التفافياً إلى النتيجة التي أحبها سلفاً.

كان المشركون يريدون من الرسول ﷺ أن يقترب من آلهتهم خطوةً ليقترّبوا من دعوته خطوة، وأن يمنح باطلهم شيئاً من الاعتراف مقابل أن يمنحوا الحق شيئاً من القبول. لكن التوحيد لا يقبل القسمة؛ لأن الاعتراف بصنم واحد ليس تفصيلاً صغيراً في العبادة، بل نقض لأصلها كله.

والحق لا يحتاج إلى مصالحة مع الباطل ليصبح حقاً. قد يحتاج صاحبه إلى الحكمة في عرضه، والرفق في تبليغه، والصبر على من يخالفه، لكنه لا يملك أن يحذف من حقيقته حتى يصبح مقبولاً.

(قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ).

إذا ترك النبي ﷺ الوحي ليتبع أهواءهم، فقد ترك مصدر الهداية نفسه. فالمعيار ليس في مكانة الشخص، بل في الوجهة التي يتبعها. لا أحد يهتدي بذاته استقلالاً عن هدى الله، ولا تمنح المنزلة صاحبها حق تعديل الحقيقة.

وهذا أعظم ما يحمي الدين من التحول إلى سلطة بشرية: الرسول نفسه مأمور بالاتباع. فلا عالم ولا قائد ولا جماعة يملكون أن يجعلوا أهواءهم امتداداً للوحي، ثم يطالبوا الناس بطاعتها كأنها من عند الله.

البينة التي لا تملكها الأهواء

(قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضُ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ).

البينة هي الوضوح الذي تقوم به الحجة، والنبي ﷺ ليس في حيرة من أمره ولا في تجربة فكرية ينتظر نتائجها؛ إنه على بينة من ربه. وبين (عَلَىٰ بَيِّنَةٍ) و(أَهْوَاءَكُمْ) تقف المسافة بين نور يأتي من الله، ورغبات تتولد داخل الإنسان ثم تبحث عن غطاء.

لقد كذبوا بالوحي، ثم استعجلوا العذاب استهزاءً، كأن تأخره دليل على بطلان الإنذار. فجاء الجواب:

(مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ).

النبي لا يملك أن ينزل العذاب متى أراد، ولا يجعل القدرة الإلهية أداة للانتصار الشخصي. إنه مبلغ، أما الحكم فله.

وهذا الإعلان يطهر الدعوة من نزعة الانتقام. فقد يؤذى صاحب الحق، ثم تتسلل إلى نفسه رغبة في أن يرى خصومه منكسرين، لا انتصاراً لله بقدر ما هو شفاء لجرحه الشخصي. أما الرسول ﷺ فيرد الأمر كله إلى الله؛ فلا يخلط بين حق الرسالة وانفعال الذات.

﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾.

الحكم الكوني والقدري والشرعي لله؛ فهو الذي يفصل بين عباده، ويخبر بالحق، ويضع للوجود ميزانه. لا يعني ذلك أن البشر لا يجتهدون في شؤون حياتهم، بل يعني أن اجتهادهم لا يملك أن ينقلب سيادةً فوق أمر الله، ولا أن يجعل الحلال والحرام تابعين لأهوائهم.

﴿يَقْصُ الْحَقُّ﴾.

الحق عند الله ليس تخميناً ولا سرديةً بين سرديات متساوية؛ إنه الحق الذي يكشف الأشياء كما هي. وما يرويه البشر عن أنفسهم قد يزينه الهوى، أما حكم الله فيجرد القضية من الأفتنة.

﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾.

يفصل بعلم لا يخطئ، وعدل لا يحيف، وحكمة لا تتعجل. وقد يؤخر الفصل في الدنيا ليكون الامتحان قائماً، لكنه لا يضيع الحق ولا ينسى أصحابه.

لو كان العذاب بيد البشر

(قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ).

لو كان العذاب بيد بشر يتلقى الأذى صباح مساء، ربما انتهت المهلة سريعاً؛ لكن رحمة الله وحكمته لا تتحركان بانفعال الإنسان. إنه سبحانه أعلم بالظالمين: يعلم مقدار ظلمهم، وما في قلوبهم، ومن قد يتوب منهم، ومن سيخرج من أصلابهم مؤمنون، ومتى يحين الأجل الذي تقتضيه الحكمة.

كم من إنسان استعجلنا الحكم على نهايته، ثم فتح الله في قلبه باباً لم نره! وكم من خصم ظنه الناس بعيداً عن الهداية، فإذا به يصبح من أنصار الحق! لو كانت المصائر بيد نفوسنا الضيقة لقطعت الغضبة طرقاً كثيرة إلى الرحمة.

إن تأخير العقوبة لا يعني غياب العدل، بل يعني أن العدل الإلهي لا يحتاج إلى العجلة كي يثبت وجوده.

مفاتيح الغيب

(وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ).

بعد أن نفى الرسول عن نفسه علم الغيب، تقرر السورة أن مفاتيحه عند الله وحده. والغيب ليس غرفة مغلقة يملك بعض البشر مفاتيحها استقلالاً، ولا مادة يتلاعب بها الدجالون ليبنوا سلطانهم على خوف الناس. ما غاب عن الخلق مما استأثر الله بعلمه لا يعلمه إلا هو، ولا يطلع أحداً على شيء منه إلا بما شاء سبحانه.

ثم تنتقل الآية من اتساع الغيب إلى دقائق المشهود: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾.

ورقة واحدة تسقط في غابة لا يراها إنسان. لا يلتفت إليها التاريخ، ولا يختل لفقدها حساب البشر؛ لكنها لا تسقط خارج علم الله.

ما أوسع هذا العلم وما أدقّه! يعلم المجرات في مداراتها، ويعلم الورقة في هبوطها. لا يشغله العظيم عن الصغير، ولا الكثرة عن الواحد. وكل ما نصفه نحن بأنه تافه إنما هو تافه في حدود اهتمامنا وعلمنا، لا خارجاً عن إحاطة الله.

إذا كانت الورقة لا تسقط إلا بعلمه، فكيف تسقط دمة عبد من علمه؟ وكيف يضيع وجع لم يستطع صاحبه أن يشرحه؟ وكيف يخفى معروف فعله إنسان في الظلام ثم مضى دون أن يشكره أحد؟

﴿وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾.

الحبة مدفونة تحت طبقات التراب، تحيط بها ظلمات لا تصل إليها العيون. ومع ذلك يعلم الله موضعها، وما ستصير إليه، ومتى ينشق عنها الغلاف. فما نراه دفناً قد يكون بداية إنبات، وما نحسبه اختفاءً قد يكون طوراً خفياً من أطوار الحياة.

هذه الآية تربي في القلب يقيناً بأن الخفاء لا يعني الضياع. قد تُدفن الجهود في صمت، وتغيب البذور طويلاً، لكن ما كان لله لا يضيع في ظلمات الأرض ولا في ظلمات التاريخ.

النوم: وفاة تعيد إلينا معنى الحياة

﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

كل ليلة يدخل الإنسان في تجربة عجز كاملة. يضع جسده على الفراش، ثم ينقطع وعيه عن العالم الذي كان قبل لحظات يظن أنه يديره. لا يحرس نفسه في نومه، ولا يضمن أن يعود إلى اليقظة.

يسمي القرآن النوم وفاة؛ قبضاً للأنفس على وجه يليق بما أخبر الله به، ثم بعثاً عند الصباح. وهكذا يتحول الاستيقاظ من عادة يومية إلى آية متكررة: لقد أذن الله لك بيوم آخر.

كم من إنسان نام وهو يرتب أعمال الغد، ثم صار الغد لغيره! وكم من مستيقظ عاد إلى حياته دون أن يشعر أن عودته من النوم منحة جديدة، وأن الصباح ليس حقاً واجباً له على الزمن!

﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾.

يعلم ما كسبتم وعملتم. فالنهار صفحة عمل، والليل إغلاق مؤقت لها، ثم يبعثكم لتستأنفوا الكتابة حتى يُقضى الأجل. ليست الأيام وحدات فارغة تتشابه، بل أجزاء من أمانة العمر؛ كل واحد منها يقطع شيئاً من الرصيد الذي لا يعود.

والإنسان يظن أنه يعبر الأيام، لكن الأيام هي التي تعبر به إلى أجله.

﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾.

كل صحوّة صغيرة تذكير بالبعث الأكبر. والذي رد إليك وعيك بعد نومك قادر على أن يبعثك بعد موتك. فالقيامة ليست غريبةً عن النظام الذي تعيشه؛ أنت تتدرب على معناها كل صباح، لكن الألفة تحجب عنك الدلالة.

الحفظة وساعة الوفاة

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾.

يعيش الإنسان بين حفظٍ وأجل. يرسل الله عليه حفظةً بأمره، فلا يقع ما لم يأذن به، حتى إذا جاء الموعد أدت رسل الله مهمتها بلا تقصير ولا تأخير.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ﴾.

الموت هو الذي يأتي؛ لا يحتاج الإنسان إلى أن يسافر نحوه، فهو سائر إليه حيث كان. قد يأتيه في بيته، أو في الطريق، أو بين أحبابه، أو وهو منهمك في مشروع ظنه أكبر من عمره.

ولا تقول الآية: إذا جاء بعضكم، بل ﴿أَحَدَكُمْ﴾؛ فالموت تجربة فردية لا تدخلها الجماعات معاً على هيئة الجماعة. قد يحيط بك الناس، لكنك تعبر العتبة وحدك، حاملاً معك ما صنعت لا ما قالوه عنك.

﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾.

تنتهي الولايات الزائفة كلها، ويرجع الإنسان إلى مولاه الحق. الذين بدا أنهم يملكون مصيره في الدنيا لا يملكون لأنفسهم يومئذ شيئاً. سقطت الألقاب، وبقيت العبودية التي حاول الإنسان نسيانها.

﴿أَلا لَهُ الْحُكْمُ﴾.

الحكم الذي كان الناس ينازعونه في الدنيا يعود ظاهراً لصاحبه الذي لم يزل له. ولا يحتاج حساب الله إلى زمن كما يحتاج البشر إلى مراجعة السجلات؛ علمه أحاط بالأعمال قبل أن تقع، وكتابه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة.

من ينجيكم من ظلمات البر والبحر؟

﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾.

للبر ظلمات، وللبحر ظلمات. قد يضل المسافر طريقه، أو تحيط السفينة أمواج لا تملك أمامها إلا قشرة من خشب. عندئذ يهبط الإنسان من برج غروره، ويخرج الدعاء من موضع لا تصنعه البلاغة.

﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾.

تضرعاً في انكسار، وخفية في صدق لا يحتاج إلى جمهور. في اللحظات الفاصلة يختفي التمثيل؛ لا يبقى الإنسان كما يريد أن يراه الناس، بل كما هو في حقيقته: ضعيفاً يرجو النجاة.

ويقطع العهد: (لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ).

في الشدة تبدو الطاعة يسيرة، ويبدو الشكر هو الحياة الوحيدة الممكنة بعد النجاة. لكن الإنسان قد ينسى بعد أن تجف ثيابه من ماء الخوف، ويعود إلى ما كان عليه كأن اليد التي أنقذته لم تكن.

(قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْرِكُونَ).

الله هو المنجي، لا الوهم الذي صنعتموه، ولا القوة التي تتلاشى عند أول اضطراب. ينجيكم، ثم تقابلون النجاة بالشرك. وما أقبح أن يعرف القلب ربه في العاصفة ثم ينكره على الشاطئ!

العذاب الذي يأتي من فوق ومن تحت

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ).

قد يأتي العذاب من الطبيعة، من فوق أو من تحت، وقد ينبع من داخل المجتمع نفسه: تفرقًا وشيْعًا وصراعًا يذيق فيه بعض الناس بأس بعض.

وهذا اللون الأخير شديد الرهبة؛ لأن العقوبة لا تأتي في صورة قوة خارجية، بل تتحول الأمة إلى أداة عذاب لنفسها. يتفتت الجامع المشترك، وتصبح الهوية الصغيرة معبودًا، ويُنظر إلى الأخ بوصفه خصمًا، ثم تسيل القوة التي كان ينبغي أن تبني في قنوات الاقتتال.

﴿أَوْ يُلْبِسَكُمْ شِيْعًا﴾.

اللبس خلط واضطراب، والشيع جماعات متفرقة، لكل واحدة عصبيتها وروايتها ومصالحها. لا يعود الناس يرون الحقيقة، بل يرون لون جماعتهم عليها. إن أحسنت جماعتهم عظموا إحسانها، وإن ظلمت بحثوا لظلمها عن عذر؛ لأن الولاء انتقل من المبدأ إلى الاسم.

وحين تتفرق المرجعية تتفرق القلوب. كل فئة تصنع لنفسها حقًا خاصًا، ثم تدخل في صراع مع الحقوق المصنوعة الأخرى. وهكذا يصبح نسيان الوحي مولدًا للعداوة؛ لأن الناس إذا لم يجتمعوا على ميزان فوق أهوائهم، جعل كل فريق هواه ميزانًا للآخرين.

﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾.

البأس الذي كان يمكن أن يردع عدوًا يتحول إلى الداخل. وتصبح طاقة الأمة فأسًا تهدم به بيتها. والذين يظنون أنهم ينتصرون على خصومهم من أبناء المجتمع لا يدركون أن الجميع يشاركون في خسارة السقف الذي يظلمهم.

﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾.

تنوع الآيات يريد أن يصنع فقهاً يتجاوز سطح الحدث إلى أسبابه الأخلاقية. فالتفرق ليس مجرد خلاف سياسي، بل قد يكون ثمرةً لانحراف أعمق: هوى صار مرجعية، وظلم بلا توبة، وحقائق تُقاس بالانتماءات لا بالوحي.

لست عليهم بوكيل

﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ۝ لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

كذب به قومه، لكن تكذيبهم لم يغير وصفه: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾.

الحق لا يأخذ حقيقته من تصديق الجمهور، كما لا يفقدها بتكذيبه. قد يعيش غريباً في زمن، لكنه يظل حقاً؛ وقد يملأ الباطل الشاشات والمنابر، لكنه لا يخرج من بطلانه.

﴿لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾.

الرسول مبلغ، لا يملك إجبارهم، ولا يحمل عنهم نتائج اختيارهم. وهذه قاعدة تحمي الدعوة من التحول إلى تسلط على الضمائر. يُبَيِّنُ الحق بقوة، لكن القلب يبقى مسؤولاً عن موقفه أمام الله.

﴿لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ﴾.

لكل خبر أخبر الله به وقت يستقر فيه واقعاً مشهوداً. قد يستهزئ الإنسان بالوعيد لأنه لم يقع بعد، لكنه يشبه من يسخر من البذرة لأنها لم تصبح شجرة في لحظة. للحقائق مواقيتها، وتأخر ظهورها لا يعني موتها.

لا تجلس حيث تُهان الآيات

(وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ).

ليس كل مجلس يستحق الحضور، ولا كل نقاش يستحق المشاركة. فإذا تحول الحديث عن آيات الله إلى سخرية وعبث، لم يعد البقاء حياداً؛ قد يصبح منحاً للمجلس شرعية لا يستحقها.

الإعراض هنا ليس عجزاً عن الحوار، بل حفظاً لحرمة الحقيقة من أن تتحول إلى لعبة. فالحوار يحتاج حدّاً أدنى من الصدق، أما الخوض الذي غايته الاستهزاء فلا يبحث عن فهم، وإنما يريد استنزاف المعنى حتى يفقد هيئته.

(وَإِمَّا يُنَسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ).

قد يقع النسيان، لكن المسؤولية تبدأ بعد التذكر. لا يطالب الله الإنسان بعصمة لا يملكها، بل يطالبه بأن يصحح موقفه حين يعود إليه وعيه.

وهذه رحمة ومنهج: الخطأ العابر لا يعرّفك، لكن الإصرار بعد التنبيه هو الذي يكشف اختيارك.

التذكير لا التشفي

﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

لا يحمل المؤمن حساب المستهزئين، لكنه لا يتحول إلى قلب بارد. يعتزل خوضهم، ثم يبقى باب التذكير مفتوحاً؛ لأن الغاية ليست مقاطعة الإنسان إلى الأبد، بل إنقاذه من المسار الذي اختاره.

إن التقوى لا تصنع عزلةً متكبرة تقول للضالين: أهلكوا؛ بل تمنع الذوبان في باطلهم مع بقاء الرحمة بهم. يرفض المؤمن المنكر، ولا يفقد في أثناء رفضه إنسانيته.

حين يتحول الدين إلى لعب

﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾.

قد يترك الإنسان الدين صراحةً، وقد يبقى اسمه ويحوّله إلى لعب ولهو: طقوس بلا عهد، ومظاهر بلا أخلاق، وشعارات تُستخدم للمباهاة أو الخصومة، بينما يظل الهوى هو الحاكم الحقيقي.

إن أخطر إفراغ للدين ألا يُحَارَب، بل أن يُحتفظ بشكله بعد إخراج روحه. يصبح زينة اجتماعية، أو هوية للصراع، أو لغة لتبرير المصالح، بدل أن يكون عبوديةً لله وميزاناً للعدل.

(وَعَرَّثَهُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا).

لم تقل: عاشوا فيها، بل غرّتهم. عرضت عليهم ظاهرها وأخفت نهايتها، فأخذوا اللّمعان ونسوا الحساب. والغرور لا ينجح إلا حين يقدم نصف الحقيقة: نعم، في الدنيا متاع وجمال، لكنه متاع عابر؛ فمن أخذ الحاضر وأسقط العاقبة وقع في الخديعة.

(وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ).

يأتي التذكير حتى لا تُسلم النفس للهلاك بسبب كسبها. فالإنسان لا يُرهن بذنوب غيره، بل بما صنعه بنفسه. وكل عمل يضيف خيطاً إلى المصير الذي ينسجه.

(لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا).

حتى لو قدمت كل فداء، لن تشتري النجاة بعد انتهاء زمن العمل. فالآخرة ليست سوقاً تمتد إليه امتيازات الدنيا؛ لا مال يغير الحكم، ولا واسطة تشتري الحق، ولا نسب يعفي صاحبه.

إنما النجاة هنا، ما دام القلب قادراً على التوبة، واليد قادرةً على رد المظلمة، والعمر لم يُغلق صفحته الأخيرة.

حيرة من استهوته الشياطين

(قُلْ أَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ).

بعد الهداية، يكون الرجوع إلى الشرك انقلاباً على البصيرة. تصوره الآية رجلاً استهوته الشياطين فتاه في الأرض حيران؛ لا يعرف جهةً ولا يستقر على طريق.

الحيرة هنا ثمرة تعدد الأرباب. كل هوى يناديه من جهة، وكل مصلحة تسحبه إلى ناحية، وكل خوف يرسم له قبلةً مؤقتة. فإذا استجاب لها جميعاً تمزق، ولم يعد يعرف أيَّ وجه له هو وجهه الحقيقي.

(لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى انْتِنَا).

ما زال صوت الهداية يصله: انتنا. لكن الحيران قد يسمع النداء ولا يعرف كيف يعود؛ لأن طول الاستجابة للأصوات المتعددة أفقده الثقة بالاتجاه.

(قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى).

لا هدى يوازيه، ولا طريق ثالث بين الوحي والضياح. قد تقدم الأهواء نفسها بوصفها تحرراً، لكنها تنتهي بالإنسان موزعاً بين سادة كثيرين. أما هدى الله فيرده إلى وحدة الوجهة، فيعرف من يعبد، ولماذا يعيش، وإلى أين يسير.

(وَأْمُرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٠﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوا وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ).

الإسلام لله يعيد بناء الصلاة، والصلاة تحفظ هذه الصلاة من أن تذوب في زحام الحياة، والتقوى تنقلها إلى السلوك. ثم يأتي الحشر ليمنح المسار نهايته الجادة. الصلاة ليست استراحة من الحياة؛ إنها إعادة ضبط لاتجاهها. يقف الإنسان مرات كل يوم بين يدي ربه كيلا تسرقه الجهات الأخرى، ويسجد حتى لا يستكبر عليه شيء بعد ذلك.

كلمة الحق وبداية الوجود ونهايته

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ).

خلق الكون بالحق؛ ليس عبثاً بلا غاية، ولا مسرحاً مغلقاً على المادة. وإذا كانت البداية بالحق، فلا بد أن تكون النهاية ميداناً يظهر فيه تمام الحق.

(وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ).

لا تعترض القدرة الإلهية مسافة بين الإرادة والوقوع. كل ما نراه مستحيلًا إنما هو مستحيل بقياس ضعفنا ومحدودية أسبابنا، أما أمر الله فلا تعوقه مادة ولا زمن.

(وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ).

الملك له في الدنيا والآخرة، لكن يوم النفخ في الصور تسقط دعاوى الملك التي خدعت البشر. الذين قالوا: أرضي، وسلطاني، وجمهوري، يققون بلا شيء إلا أعمالهم. يظهر الملك الذي لم يرغب، بعد أن غابت الأوهام التي نازعته في وعي الإنسان.

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾.

يعلم ما غاب وما حضر، ما أعلنته الألسن وما أخفته الصدور، ما وقع أمام الناس وما جرى خلف الأبواب. ولذلك يكون حكمه كاملاً؛ فلا تضلله صورة، ولا تنقصه وثيقة، ولا ينجو من علمه من أحسن صناعة الأئمة.

﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾.

يختم المشهد بالحكمة والخبرة. فالكون الذي بدأ بأمره لا ينتهي إلى فوضى، والحياة التي جرت تحت علمه لا تختتم بحكم ناقص.

ومن بين الخلق والحشر تمضي رحلة الإنسان: إما أن يتبع الوحي فيستقيم له الطريق، وإما أن تتخطفه الأهواء فيبقى حيران. وليس التحرر أن يمشي المرء بلا هدى، بل أن ينجو من كل طريق يستعبده، ثم يستقر على الصراط الذي يقوده إلى مولاه الحق.

الفصل التاسع

إبراهيم عليه السلام: حين تساقطت الآلهة تحت ضوء الفطرة

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَزَرَ اتَّخِذْ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ).

بعد أن عرضت السورة صورة الحيران الذي استهوته الشياطين في الأرض، جاءت بصورة رجل خرج من الحيرة إلى اليقين، ثم وقف وحده أمام قوم ورثوا الضلال حتى حسبوه هوية لا يجوز الاقتراب منها.

إنه إبراهيم عليه السلام.

لم تبدأ قصته بمواجهة ملك، ولا بتحطيم صنم، بل بكلمة قالها لأقرب الناس إليه: أبيه. فالمعركة الأولى بين التوحيد والتقليد لا تقع دائماً في الساحات الكبرى؛ قد تبدأ داخل البيت، حيث تكون الروابط أشد، والكلمة أثقل، ومخالفة الموروث أكثر ألماً.

(اتَّخِذْ أَصْنَامًا آلِهَةً)؟

السؤال يهدم المسافة المصنوعة بين حقيقة الشيء والاسم الذي ألبسه الناس له. إنها أصنام: مواد نحتتها الأيدي، ثم سمّتها آلهة، وبعد أن منحتها الاسم خضعت لها كأن الاسم قد غير طبيعتها.

وهكذا يبدأ كل صنم: يصنعه الإنسان، ثم ينسى أنه صنعه. يضع فيه من خياله معنى القوة، ثم يخاف من القوة التي تخيلها. يمنحه قداسةً من نفسه، ثم يتعامل مع قداسته كأنها حقيقة نزلت من السماء.

وما أوسع الأصنام حين تتجاوز الحجر! قد تصنع الجماعة رمزاً، ثم تحيطه بهالة تمنع مساءلته. وقد يبني الناس نظاماً من العادات، ثم يخضعون له كأنه قدر لا يمكن تغييره. وقد يبتكر البشر فكرةً تخدم مرحلةً من تاريخهم، ثم يسلمون لها الأجيال اللاحقة عقولها وحريتها.

كان إبراهيم يرى ما لا يريد قومه أن يروه: الحجر حجر، مهما انحنت أمامه الظهور، والباطل باطل، مهما طال عمره في المجتمع.

(إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ).

لا يخفف إبراهيم حقيقة الموقف حتى يحافظ على راحة العلاقة، لكنه لا يبدأ بالسباب ولا بالتعالي؛ يبدأ بكشف موضع الضلال. فالرحمة ليست أن تترك من تحب يسير إلى الهاوية خوفاً من أن تزعجه، وإنما أن تقول له الحقيقة من قلب يريد نجاته.

إن أصعب الصدق ما قيل لمن نحب؛ لأننا نكون بين خوفين: خوف عليهم من الباطل، وخوف على العلاقة من ثمن المكاشفة. لكن إبراهيم علّمنا أن القرابة لا تعني تسليم العقل للموروث، وأن برّ الوالد لا يقتضي طاعته في الشرك.

ملكوت السماوات والأرض

{وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ}.

لم تكن رحلة إبراهيم صناعةً بشريةً لليقين بمعزل عن هداية الله؛ الله هو الذي أراه ملكوت السماوات والأرض. والملكوت يكشف عن عمق الملك، وعن النظام الذي تتبدى فيه آثار القدرة والحكمة.

قد يرى الإنسان الأشياء ولا يرى ملكوتها. يرى السماء لونًا ممتدًا، ولا يقرأ ما فيها من دلالة. يرى الشمس كل صباح حتى تقتل الألفة دهشته، ويمر بالقمر كأنه مصباح قديم لا يحمل سؤالًا. أما إبراهيم فقد رأى الكون بعين لم تفسدها العادة.

إن اليقين لا يتولد من كثرة المعلومات وحدها، بل من طريقة النظر. قد يعرف المرء أسماء النجوم ومسافاتها، ثم لا يزداد بها إلا غفلة؛ وقد ينظر آخر إلى كوكب واحد، فيفتح له المشهد طريقًا إلى معرفة الخالق.

{وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ}.

اليقين نور يقيم في القلب بعد أن تستقر فيه الحقيقة فلا تعبت بها الرياح. ليس انعدام الأسئلة، بل وصولها إلى جواب يمنح الوجود اتساقه. وليس انفعالات مؤقتة أمام مشهد، بل رؤية تعيد ترتيب الخوف والرجاء والموقف.

وقد أرى الله إبراهيم ملكوت السماوات والأرض ليقوم يقينه على رؤية الآيات في نظامها، لا على تقليد قومه في أسمائهم. فالتوحيد يفتح العين، والشرك يطلب منها أن تغمض أمام التناقض.

الكوكب الذي أفل

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾.

جَنَّ عليه الليل: غطاه بظلامه، فظهر كوكب يلمع في الفضاء. وفي سياق حاجة قومه، جاراهم إبراهيم في عرض ما يعبدون ليكشف لهم بطلانه من داخله، لا أنه كان شاكًا في ربه؛ فقد أراه الله الملكوت وجعله من الموقنين، وكان إنكاره للأصنام سابقًا ظاهرًا.

قال: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ على سبيل إقامة الحجة وتنزلاً مع تصورهم، ثم انتظر حتى تكلم المشهد بنفسه:

﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾.

لم يحتج إلى مطرقة يحطم بها الكوكب؛ كان الأفول كافيًا. فالمعبود الذي يغيب لا يملك أن يكون ربًا للعالمين. وما يخضع لقانون الحركة لا يكون هو واضع القانون، وما ينتقل من ظهور إلى غياب لا يصلح أن يتعلق به قلب يريد الحقيقة الثابتة.

﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾.

لم يقل فقط: لا أعبد الآفلين، بل: لا أحبهم. لأن العبادة في أصلها ليست حركة جسد وحدها، بل حب وتعظيم وتعلق. وإبراهيم لا يريد أن يودع قلبه عند شيء يغيب.

هذه الجملة تعبر من عالم العقيدة إلى عمق التجربة الإنسانية: كم يتعب الإنسان حين يعلق قلبه بما يأفل! جمال يذبل، وقوة تضعف، وشهرة تنطفئ، ومال

ينتقل، وبشر يرحلون. ليست المشكلة في أن يحب الإنسان نعمةً أو إنساناً حباً مشروغاً، بل في أن يطلب من الزائل ثباتاً لا يملكه، وأن يجعله مركز وجوده حتى إذا أفل أظلمت حياته كلها.

التوحيد لا يقتل الحب؛ إنه ينقذه من أن يتحول إلى عبودية. يعلمك أن تحب المخلوق في موضعه، وألا تطالبه بوظيفة الخالق. تستمتع بالنور، لكنك لا تعبد المصباح؛ وتأنس بالرفيق، لكنك لا تجعل مصير روحك معلقاً ببقائه.

القمر الذي لم يحتمل مقام الربوبية

(فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَأُنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ).

ظهر القمر أكبر نوراً وأشد حضوراً من الكوكب، لكن كبر الحجم لا يغير طبيعة الأفول. قد تختلف الأصنام في قوتها، غير أنها تشترك في العجز. وما يبدو عظيماً بالمقارنة إلى ما دونه، يصغر حين يقارن بجلال الخالق.

هنا يعلن إبراهيم افتقاره إلى الهداية: (لَأُنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ).

مع أنه صاحب عقل يتأمل ويميز، لم ينسب النجاة إلى عبقريته. فالعقل أداة عظيمة، لكنه يحتاج إلى هداية الله؛ قد يستخدمه صاحبه في الوصول إلى الحق، وقد يحوله إلى آلة متقنة لتبرير الهوى.

إن أعظم العقول لا تستغني عن قول: يا رب اهدني. وكلما عرف الإنسان تعقيد نفسه، أدرك أن الضلال لا يقع فيه الأغبياء وحدهم؛ قد يقع فيه الذكي

حين يفتن بذكائه، والعالم حين يظن أن علمه يغنيه عن التواضع، والمتعبد حين يتكىء على عمله وينسى فضل الله.

الهداية ليست محطة يبلغها الإنسان ثم يستغني عن ربه؛ إنها مدد يحتاج إليه في كل خطوة. ولهذا يسأل المؤمن ربه في كل صلاة: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، وهو واقف أصلاً على طريق الإيمان؛ لأنه يريد هداية الثبات والتفصيل والزيادة وحسن الختام.

الشمس: الصنم الأكبر يسقط أيضاً

﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

تأتي الشمس في ذروة المشهد: أكبر، وأشد ضياءً، وأوسع أثراً. وإذا كان معيار الربوبية هو الظهور والقوة المحسوسة، فهي أحق من الكوكب والقمر في تصورهم.

لكنها أفلت.

لم ينقذها كبرها من الغياب، ولم يمنحها نورها استقلالاً عن النظام الذي يحكمها. فإذا كان الأصغر لا يصلح إلهاً لأفوله، فالأكبر لا يصير إلهاً لأنه يأفل بعد وقت أطول.

وهذه ضربة لكل تصور يجعل القوة معياراً للحق. قد يكون الباطل أكبر عدداً، وأعلى صوتاً، وأشد انتشاراً، لكنه لا يتحول بذلك إلى حقيقة. الحجم وصف للنفوذ، لا برهان على المشروعية.

كم من قوة بدت في عصرها كالشمس لا يستطيع أحد النظر إليها، ثم أفلت وتركت خلفها صفحات من العبرة! وكم من إمبراطورية حسبت أن التاريخ توقف عند أبوابها، ثم مضت وبقيت الأرض تستقبل شمساً أخرى!

حين أفلتت الشمس انتهت المحاجة: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

لم يعد الأمر تأملاً داخلياً؛ صار موقفاً معلناً. فاليقين إذا اكتمل حمل صاحبه على البراءة من الباطل، وإلا بقي معرفةً بلا أثر.

إن إبراهيم لم يكتف بأن يكون موحدًا في سره داخل مجتمع مشرك؛ أعلن مفارقتة العقدية. لا عدوانًا على قومه، بل تحريرًا لضميره من أن يُحسب على ما يرفضه.

الوجهة التي لا تأفل

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

بعد سقوط الجهات المصنوعة ظهرت الوجهة الحقيقية. لم يقل إبراهيم: عرفت فقط، بل: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾.

إنه قرار يشمل الوجود كله. الوجه هو موضع الإقبال، وتوجيهه يعني جمع الإرادة بعد تفرقها. فالتوحيد لا يضيف معبودًا أقوى إلى قائمة المعبودات، بل يمحو القائمة كلها، ويرد القلب إلى الله وحده.

﴿لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾.

لم يوجه وجهه إلى شيء داخل الكون، بل إلى خالق الكون. فالكوكب والقمر والشمس علامات على القدرة، لا شركاء فيها. والمخلوقات مهما عظمت وظيفتها تظل واقفةً عند حد العبودية.

﴿حَنِيفًا﴾.

مائلًا عن الشرك إلى التوحيد، مستقيم الوجهة إلى الله. والحنيف لا يقف في منتصف الطريق بين الحق والباطل، ولا يوزع ولاءه ليضمن رضا الجميع. لقد خرج من شبكة الأرباب، فلم يعد قلبه ساحةً تتنازعها الجهات.

﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

نفى يحرس الإثبات. وجهه لله، ولذلك لا مكان للشريك. فقول «أنا لله» لا يكتمل مع بقاء زوايا في النفس يحكمها غيره.

حين يحاج المجتمع فطرته المستيقظة

﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾.

لم يملكوا بعد سقوط حجتهم إلا أن يخوفوه بآلهتهم. فالوثنية حين تفشل في إقناع العقل تنتقل إلى إرهاب النفس: احذر، قد تصيبك الآلهة بسوء.

لكن إبراهيم الذي عرف الله تحرر من الخوف الذي يحرس الأصنام: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾.

هذه ثمرة اليقين: ليس فقط أن تعرف أن الصنم باطل، بل أن تسقط هيئته من قلبك. فقد يرفض الإنسان فكرةً بعقله ويظل خائفًا منها في أعماقه بسبب ميراث طويل من التهويل. أما إبراهيم فقد حرر وعيه وشعوره معًا.

ومع ذلك لم ينسب إلى نفسه استقلالاً: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾.

لا يضره الصنم، لكن ما يشاءه الله نافذ. فالأمان ليس في قوة إبراهيم الذاتية، بل في خضوع الكون لمشيئة الله.

﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾.

علم الله يحيط بما يخفى على إبراهيم وقومه، فلا يقع شيء خارج حكمته. وحين يستقر هذا المعنى لا يعود المجهول وحشًا مطلقًا؛ قد تجهل ما سيحدث، لكنك تعرف أن ما سيحدث لا يخرج عن علم ربك.

من الأولى بالخوف؟

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

يقلب إبراهيم السؤال عليهم. أنتم تخوفونني من حجر لا يملك شيئًا، ولا تخافون من أنكم جعلتم لله شريكًا بلا حجة! أي الموقفين أحق بالخوف؟

إن الباطل يعكس الموازين: يجعل الموحد هو المهدد، والمشارك مطمئنًا؛ يجعل الصادق خائفًا على مكانته، والكاذب آمنًا داخل جماعته. فجاء إبراهيم ليرد الخوف إلى موضعه الصحيح.

﴿مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾.

الشرك بلا برهان. إنه يقوم على الميراث والرغبة وضغط الجماعة، لا على سلطان من العلم. ولو نُزعت عنه الألفة الاجتماعية لظهر عاريًا من الحجة.

ثم يجيب الوحي: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾.

والظلم هنا الشرك، كما بيّنت السنة؛ فهو أعظم وضع للشيء في غير موضعه: أن يُمنح المخلوق حقًا لا يكون إلا للخالق.

الأمْن ثمرة التوحيد. ليس وعدًا بأن المؤمن لن يمر بالخوف البشري أو الألم، بل أَمْن في الأصل والوجهة والمصير. قد تضطرب حوله الحياة، لكن مركزه الداخلي ثابت؛ يعرف ربّه، ويعرف أن مصيره إليه، فلا تبتلعه الفوضى.

أما المشرك فيوزع قلبه بين قوى متعددة؛ يخاف كل واحدة منها، ويرجوها، ويراقب تغيرها. يعيش في شبكة من الحسابات لا تنتهي. فإذا أَرْضَى جهةً خاف غضب أخرى، وإذا ربح اليوم عاش قلق فقده غدًا.

التوحيد يجمع القلب، والشرك يفتته.

الحجة التي يرفع الله بها عباده

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّنْ نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

لم يقل الله: تلك حجة إبراهيم مستقلة، بل: ﴿حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ﴾.

حتى قوة البرهان عطية من الله. هو الذي هدى العقل إلى موضع الدليل، ومنح اللسان القدرة على بيانه، وثبت القلب أمام ضغط المجتمع.

وهذا يحرس صاحب الحجة من الغرور. فليس تفوقك في البيان ملكًا ذاتيًا يجيز لك احتقار من لم يفهم، بل نعمة تستوجب الشكر. وقد يُفتح لك في معنى اليوم، ثم تحتاج غدًا إلى من يفتح لك في معنى آخر.

(نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ).

ترتفع منزلة الإنسان بما يهبه الله من إيمان وعلم وحجة وثبات، لا بما يصنعه المجتمع من ألقاب. قد يكون إبراهيم فردًا واحدًا أمام أمة، لكنه كان أعلى منها؛ لأن الارتفاع الحقيقي يقاس بالقرب من الحق، لا بكثرة الواقفين في الصف.

(إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ).

يرفع بحكمة، ويهب العلم لمن يعلم أهليته لحمل أمانته. وما من نعمة فكرية أو روحية إلا وراءها مسؤولية؛ فكل درجة يرفع الله بها عبدًا تضع على كتفه واجبًا أكبر.

موكب النبوة: أسرة التوحيد الممتدة

(وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ).

لم يبق إبراهيم وحده. الرجل الذي خرج من قومه بالتوحيد جعل الله في ذريته سلسلة من الأنبياء. ما بدا لحظة صوتًا فرديًا صار نهرًا يجري في التاريخ.

إن صاحب الحق قد لا يرى ثمرة موقفه كاملةً في حياته. ربما يقف وحيداً، وتبدو مقاومته صغيرة أمام رسوخ الباطل، لكن الكلمة الصادقة تحمل مستقبلاً لا تراه العين ساعة قولها.

من إبراهيم جاء إسحاق ويعقوب، ومن الموكب داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون. تنوعت قصصهم، لكن النبع واحد: هدى الله.

داود عرف العبادة والملك.

وسليمان حمل سلطاناً لم يفسد عبوديته.

وأيوب مر بالألم ولم يفقد باب الرجاء.

ويوسف خرج من الجب إلى التمكين وبقي طاهر القلب.

وموسى واجه الطغيان بكلمة الله.

وهارون حمل أمانة المعاونة والصبر.

﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾.

الهداية جزاء وإحسان وفضل، والإحسان لا يضيع. قد تتأخر ثماره، لكنه يدخل في نسيج التاريخ على صورة لا يحسن صاحب العمل تقدير مداها.

﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِيلَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٨﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

ليست النبوة مجداً عرقياً ولا امتيازاً قومياً؛ إنها اصطفاء للرسالة والعبودية. هؤلاء ينتمون إلى عصور وبيئات وتجارب مختلفة، لكنهم يلتقون في مقام الصلاح.

ويأتي عيسى عليه السلام داخل موكب الأنبياء؛ عبدًا كريمًا ورسولًا مصطفى، لا إلها ولا ابن إله. مكانته العظيمة محفوظة في التوحيد، والغلو فيه لا يرفعه بل يخرج من المقام الذي شرفه الله به.

(وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ).

الاجتباء اختيار، والهداية منحة، والصراط واحد. تتعدد الأزمنة ولا يتعدد أصل الدين: عبادة الله وحده والاستسلام له واتباع هدايه.

حتى الأنبياء لا يستغنون عن التوحيد

(ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

بعد ذكر هذا الموكب العظيم تأتي الآية مزلزلة: لو وقع منهم الشرك لحبط العمل. والمقصود بيان عظمة التوحيد وأن المنزلة لا تجعل الشرك مقبولا من أحد، على فرض وقوعه؛ وقد عصم الله أنبياءه منه.

لا نسب يحمي عملاً نقض صاحبه أصله، ولا تاريخ من الصلاح يمنح الإنسان ترخيصاً في الشرك. فالله لا يحابي أحداً على حساب الحقيقة، والتوحيد ليس فضيلةً إضافية، بل الأساس الذي يقوم عليه البناء كله.

وهذا يظهر الوعي من عبادة الأشخاص. نحب الأنبياء ونتبعهم لأنهم دلوا على الله، ولا نجعل محبتهم باباً لمنحهم خصائص الربوبية. فهم أكمل الناس عبوديةً، وتعظيمهم الحق أن نحفظ لهم المقام الذي وضعهم الله فيه.

الكتاب والحكم والنبوة

(أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ).

الوحي لا يتوقف على قبول جماعة بعينها. إن كفر به قوم، قيض الله له من يحملها. فالرسالة أكبر من الشعوب والأسماء، ولا تصبح أسيرة لمن سبق إليها ثم ضيّع أمانتها.

كم يحرر هذا المعنى صاحب الدعوة! لا يظن أن الحق يموت إذا تركه أصحابه، ولا أن الدين يحتاج إلى شخص أو جماعة بحيث ينتهي بغيابها. من أعرض استبدل، ومن حمل الأمانة رفعه الله بها.

لا أحد يمين على الوحي بانتمائه إليه؛ الوحي هو الذي يمنح الانتماء قيمته.

فبهدهم اقتده

(أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدِهِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ).

يؤمر النبي محمد ﷺ أن يقتدي بهدى الأنبياء قبله. لا بأعيان الشرائع التي تُسخ منها ما تُسخ، بل بأصل هداهم في التوحيد والصبر والبلاغ والعبودية.

إن الرسالة المحمدية ليست مقطوعة عن تاريخ النبوة؛ إنها خاتمة النهر الذي جرى من المنبع نفسه. ولهذا يشعر المؤمن وهو يقرأ أسماء الأنبياء أنه أمام أسرته الروحية الكبرى؛ قومه الذين جمعهم الوحي وإن فرقت بينهم القرون.

(لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا).

صفاء الدعوة يظهر في تحررها من الطمع فيما في أيدي الناس. فالرسول لا يبيع الهداية، ولا يجعل حاجتهم إلى الحق طريقًا لبناء ثروته. إنه يبلغ لأن الله أمره، ويريد لهم النجاة لا المقابل.

(إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ).

القرآن ذكرى؛ يعيد إلى الفطرة ما نسيتها، وإلى العقل ما حجبته الهوى، وإلى الإنسان معنى وجوده. وهو للعالمين، لا لقبيلة ولا عصر ولا طبقة.

وهكذا تنتهي رحلة إبراهيم في هذا المقطع كما بدأت سورة الأنعام: من النظر في السماوات والأرض إلى توحيد فاطر السماوات والأرض. سقط الكوكب، وأفل القمر، وغابت الشمس، وبقي الله الذي لا يزول.

لقد تعلم إبراهيم من الأفول قانونًا عظيمًا: لا تمنح قلبك على وجه العبودية لما يأفل. فالذي يغيب لا يصلح أن يكون وجهتك الأخيرة، والذي يتغير لا يحمل يقينك، والذي يموت لا يملك مصيرك.

وحده الله يبقى حين تنطفئ الأنوار المستعارة، وتسقط الآلهة المتناثرة، ويقف القلب أخيرًا أمام الحقيقة التي لم تأفل قط.

الفصل العاشر

حين يُعرف الله من كلامه وآثار صنعه

{وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ}.

بعد أن عرضت السورة موكب الأنبياء والكتب والهداية، كشفت الجذر الخفي لإنكار الوحي: لم يعرف المنكرون الله حق معرفته، ولم يعظموه حق تعظيمه.

ظنوا أن الله يخلق الإنسان ثم يتركه بلا كلمة تهديه، ويمنحه العقل دون أن ينزل إليه ميزانًا يحفظ العقل من هواه، ويضعه في مفترق الطرق ثم لا يده على الطريق. كأن الخلق يليق بالحكمة، أما البيان فلا يليق بها!

إن إنكار الوحي ليس موقفًا من الكتاب وحده؛ إنه تصور ناقص عن الله. فمن عرف ربوبيته أدرك أن الهداية من تمام رحمته، وأن الذي رزق الجسد طعامه لا يترك الروح بلا غذاء، وأن الذي أقام نظام الكون لا يهمل نظام الحياة الإنسانية.

{قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ}.

يسألهم القرآن من داخل التاريخ الذي يعرفونه. إذا كان الله لم ينزل على بشر شيئًا، فمن أين جاء كتاب موسى عليه السلام؟ وكيف تحول الوحي على يديه إلى نور يكشف الطريق، وهدى يقود الناس؟

النور يكشف، والهدى يوجّه. فقد يرى الإنسان الطريق ولا يسلكه، وقد يريد السير ولا يعرف الجهة؛ فجاء الكتاب جامعاً بين كشف الحقيقة والدلالة عليها. لكن الناس لم يحفظوا للكتاب وظيفته كاملة: ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾.

حين تتحول الرسالة الواحدة إلى قراطيس متفرقة، يستطيع الهوى أن ينتقي منها ما يخدمه ويخفي ما يراجع. يُظهر الحكم حين يكون سيفاً على خصمه، ويخفيه حين يصير مرآة لنفسه. يحتج بالنص حيث يمنحه سلطة، ويصمت عنه حيث يطالبه بالعدل.

وهذه ليست آفة خاصة بأمة مضت؛ إنها مرض كل تدين انتقائي. فالإنسان لا ينكر الكتاب كله؛ قد يحتفظ بما يزين صورته، ثم يعزل الآيات التي تهدم امتيازاته. يرفع النص في وجه الضعيف، ويضعه جانباً أمام القوي. يحفظ أحكام الطاعة، وينسى أحكام الأمانة والرحمة والعدل.

إن أخطر إخفاء للوحي قد يقع والآيات معلنة على المنابر؛ تخفى دلالتها بتجريدها من سياقها، أو يُبرد أثرها بكثرة التردد الذي لا يتبعه عمل، أو يُسلط بعضها على الناس ويحجب بعضها عن أصحاب السلطان.

﴿وَعَلِّمْتُكُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾.

الوحي يفتح للإنسان أفقاً لا يبلغه العقل وحده: يخبره عن ربه، وعن الغاية من وجوده، وعن الآخرة، وعن ميزان الخير والشر. لا يلغي العقل، بل ينقذه من أن يُسجن داخل حدود التجربة الحسية والميراث الاجتماعي.

كم من باطل ورثه الناس لأن آباءهم لم يعرفوا غيره! ثم جاء الوحي ليخرج المعرفة من سجن السلالة. فالحقيقة لا تُعرف بقدمها في المجتمع، ولا يكون الموروث صحيحًا لمجرد أنه موروث.

ثم يأتي الجواب الحاسم: ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾.

قل: الله أنزل الكتاب. ثم لا تجعل العبث الذي لا يطلب حقيقةً يستنزف الرسالة. فبعض الجدل لا ينتهي لأن صاحبه لا يريد أن ينتهي؛ كلما أحبته انتقل إلى سؤال آخر، لا طلبًا للعلم، بل حفاظًا على متعة الخوض.

الكتاب المبارك الذي يوقظ أم القرى وما حولها

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾.

﴿وَهَذَا﴾: إشارة إلى كتاب حاضر، لا ذكرى بعيدة. القرآن قريب من الإنسان قرب الكلمة التي يقرأها، لكنه ممتد في أثره فوق الزمان. ﴿مُبَارَكٌ﴾.

البركة خير ثابت نام يتجاوز الحجم الظاهر للشيء. آيات محدودة الألفاظ، لكنها أنشأت أمة، وفتحت عقولاً، وأحيت قلوباً، وما زالت تمنح كل جيل من المعاني ما يصلح واقعه دون أن تنفذ خزائنها.

يقرأ الإنسان الآية نفسها في مراحل مختلفة من عمره، فتفتح له في كل مرة باباً جديداً؛ لا لأن النص تبدل، بل لأنه جاءه بقلب وتجربة وسؤال لم يكن

يملكه من قبل. القرآن لا يشيخ بكثرة القراءة، وإنما تتجدد أعمار قارئه بين يديه.

{مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ}.

هو حلقة خاتمة في سلسلة الوحي، يصدق أصل الرسالات السابقة، ويعيدها إلى نقائها من التحريف، ويجمع موكب الأنبياء في عقيدة واحدة. لم يأت ليقطع تاريخ التوحيد، بل ليتمه.

{وَلِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا}.

بدأ النور من مكة، لكنه لم يُحصر فيها. كانت أم القرى نقطة الانطلاق، ثم اتسعت الدائرة حتى بلغت العالمين. وهكذا تعمل الرسالات الكبرى: تبدأ من مكان محدد، لكن حقيقتها لا تقبل أن تُسجن في الجغرافيا.

{وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ}.

الإيمان بالآخرة يفتح القلب للقرآن؛ لأن من أيقن بالحساب بحث عن الكتاب الذي يدلّه على طريق النجاة. ثم تظهر ثمرة الإيمان في المحافظة على الصلاة.

لم تقل الآية: يؤدونها أحياناً، بل يحافظون عليها. كأن الصلاة وديعة تتعرض للسرقة من الانشغال والغفلة، والمؤمن يحرسها؛ لأنها تحرس صلته بالله.

الصلاة تحفظ معنى الآخرة من أن يتحول إلى معلومة باردة. ففي كل تكبيرة خروج مؤقت من ضجيج الدنيا، وفي كل سجدة تذكير بأن العظمة لله، وفي كل تسليم عودة إلى الحياة بقلب أعيد ترتيب وجهته.

من يكتب وحيًا من عند نفسه؟

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ).

من أعظم الظلم أن يستعير الإنسان سلطة الله ليمنح كلامه قداسة لا يملكها. فالافتراء على الله لا يضل صاحبه وحده؛ يضع بين الناس وبين ربهم كلامًا بشريًا ثم يطالبهم بالخضوع له.

وهنا تتضاعف الجريمة: كذبٌ على الله، واستعبادٌ للإنسان باسم الله.

كل سلطة تزعم أن أهواءها وحي لا يُراجع، وكل متحدث يجعل ظنه الخاص حكمًا إلهيًا قاطعًا دون علم، يقترب من هذه المنطقة الخطرة. فالتوقيع عن الله ليس مجالًا للاستعراض، والعلم الشرعي ليس سُلَّمًا إلى السيطرة على الضمائر.

(وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ).

إنه غرور الإنسان حين يعجز عن رؤية الفارق بين الكلام الذي يصنعه والوحي الذي يصنع الإنسان. يستطيع البشر تقليد بعض الأوزان والعبارات، لكنهم لا يستطيعون إنشاء قرآن يجمع هذا السلطان على الروح، وهذا الاتساق في الرؤية، وهذه القدرة على بناء الفرد والأمة والتاريخ.

الوحي ليس زخرفة لغوية يمكن محاكاتها؛ إنه خبر الله وهداه، وكلماته تحمل من حقائق الوجود ما لا يستمدّه البشر من ذواتهم.

غمرات الموت وسقوط الدعاوى

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ﴾.

الغمرات شدائد تغمر الإنسان من كل ناحية. والموت الذي كان فكرةً بعيدة صار محيطًا بالظالمين، لا يستطيعون تأجيله ولا التفاوض معه.

﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ﴾.

كانوا يتصرفون في الدنيا كأن أنفسهم ملك لهم، فإذا جاء الموت ظهر عجزهم حتى عن الإمساك بها. لا يملكون إدخالها ولا إخراجها، ولا يملكون ساعةً إضافية يكتبون فيها اعتذارًا أخيرًا.

﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾.

بدأ السقوط من القول على الله بغير الحق، ومن الاستكبار عن آياته. فالإنسان لا يضل فقط لأنه جهل، بل لأنه رأى في الخضوع للحقيقة انتقاصًا لكبريائه.

لكن من استكبر عن العبودية لله وقع في عبوديات أشد هوانًا: لهواه، وصورته، وخوفه، والناس الذين يطلب رضاهم. التواضع لله يرفع، والاستكبار عليه يرد الإنسان إلى أصغر ما فيه.

عدتم فرادى

(وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ).

هذه من أكثر الآيات تجريداً للإنسان من أوهامه. جئتم فرادى: لا حاشية، ولا قبيلة، ولا جمهور، ولا ممتلكات تملأ المسافة بينكم وبين الحقيقة.

كما خلقناكم أول مرة؛ بلا مال ولا لقب ولا نفوذ. كل ما جمعتموه كان عارية مؤقتة، ثم تركتموه وراء ظهوركم.

كم يقضي الإنسان من عمره في بناء ما لن يدخل معه قبره! يخاصم لأجل أرض سيغادرها، ويظلم لأجل مال سيقسمه غيره، ويهدم قلبه ليحافظ على صورة ستذوب بعد موته في ذاكرة الناس.

لا تدم الآية المال في ذاته، بل تفضح وهم الملك المطلق. لقد (خَوَّلْنَاكُمْ): أعطيناكم على وجه الاختبار، لا على وجه الاستقلال. أنت مستخلف في الشيء، وستسأل: من أين أخذته؟ وفيم أنفقته؟ وماذا صنع بقلبك؟

(وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءَ).

أين الذين ملؤوا مساحة الخوف والرجاء في نفوسكم؟ أين من عصيتم الله لإرضائهم؟ وأين من نسبتم إليهم سلطاناً لم يمنحهم الله؟

(لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَرْغُمُونَ).

تقطعت الروابط التي بُنيت على الباطل. فالعلاقات التي لا تقوم على الحق قد تبدو متينة في الدنيا لأن المصالح تربطها، لكنها تتلاشى حين تنتهي المصلحة. ويبقى الإنسان فردًا أمام عمله. ولهذا فإن التوحيد لا يعزله عن الناس، بل يصحح علاقته بهم: يحبهم دون أن يعبدتهم، ويطيع في المعروف دون أن يسلم لهم ضميره، ويحسن إليهم دون أن يطلب منهم جزاءً لا يملكونه.

فالق الحب والنوى

(إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ).

بعد مشهد الموت والبعث، تأخذنا السورة إلى حبة صغيرة ونواة صامتة. تبدوان جامدتين، ثم ينشق الغلاف، ويخرج منهما ساق غض يحمل مشروع شجرة كاملة.

(فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى).

الله هو الذي يشق السكون عن الحياة، والظلمة عن الخضرة، والشيء الصغير عن مستقبل أكبر منه. لا ترى العين داخل الحبة غصناً ولا ثمرة، لكن علم الله أودع فيها طريقها كله.

كم يشبه القلبُ الحبة! قد يحيط به غلاف قاسٍ صنعته التجارب، ثم تأتي كلمة من الله فتفلق القشرة، ويخرج من موضع ظنه الناس ميثاً معنى حي.

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾.

تتعاقب الحياة والموت تحت قدرته. يخرج المؤمن من بيئة كافرة، وقد يخرج الكافر من بيت مؤمن، ويخرج النبات من مادة تبدو هامدة، ثم يرد الحي إلى صورة الموت.

لا تُحاصر قدرة الله بما تراه من مقدمات. قد يخرج النور من قلب بيت مظلم، وتنهض حياة من أرض حسبها الناس جدباء، وتولد بداية من نهاية.

﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾.

هذا الذي يفلق الحب ويخرج الحياة هو الله، فكيف تُصرفون عنه إلى ما لا يخلق حبة ولا يهدي نواةً إلى طريقها؟

فالق الإصباح

﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

كما يفلق غلاف الحبة عن النبتة، يفلق ظلام الليل عن الصباح. كأن الضوء كان محبوساً وراء جدار أسود، ثم شقه الله، فانسكب النهار على الأرض.

إن الصباح لا يأتي لأنه اعتاد المجيء، بل لأن التقدير الإلهي ما زال نافذاً. نحن نسمي التكرار عادةً، والقرآن يعيده إلى القدرة. فما يتكرر لا يفقد كونه آية؛ إنما تفقد النفس قدرتها على رؤيته.

﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾.

ليس الليل غياباً للنور فحسب، بل سكن تسكن فيه الأجساد وتخف حركة العالم. لقد جعل الله في بنية الزمن رحمةً بالإنسان؛ نهاراً للسعي، وليلاً يعيده من تشتته إلى هدوئه.

وحين يفسد الإنسان هذا الإيقاع، ويحمل ضجيج النهار كله إلى الليل، يدفع روحه ثمن حياة لا تعرف السكون. ليس الجسد وحده من يحتاج إلى النوم؛ القلب يحتاج إلى مساحة تخف فيها أصوات العالم حتى يسمع نفسه.

﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا﴾.

بهما تنتظم المواقيت والحسابات. ليسا آلهة كما ظن قوم إبراهيم، بل مخلوقان داخل نظام دقيق. عظمتُهما لا تخرجهما عن العبودية، بل تزيد دلالتُهما على عظمة من قدرهما.

﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

عزيز لا يعجزه شيء، عليم لا يقع في تقديره خلل. القوة والعلم يجتمعان؛ فليس الكون نتيجة قوة عمياء، ولا علم بلا قدرة، بل تقدير العزيز العليم.

النجوم التي تهدي في الظلمات

(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ).

النجوم التي عبدها بعض البشر جعلها الله خادمةً لهدايتهم. ما اتخذها الوهم إلهاً وضعه الوحي في موضعه الصحيح: علامةً في الطريق.

وهذا هو عمل التوحيد في الأشياء؛ لا يحطم قيمتها، بل يحررها من القيمة الزائفة ويعيدها إلى وظيفتها الحقيقية. الشمس نافعة لأنها مخلوقة، لا لأنها معبودة؛ والنجم جميل لأنه آية، لا لأنه رب.

(فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ).

حين تتشابه الجهات ويغيب الطريق، يرفع المسافر رأسه إلى السماء ليعرف موضعه في الأرض. يا لعظمة الصورة: هداية الخطوة القريبة معلقة بعلامة بعيدة.

وكذلك الوحي؛ يأتي من عند الله ليهدي الإنسان في ظلمات الحياة. حين تتشابه أصوات الأهواء ولا يعرف أين يتجه، يرفع بصيرته إلى الكتاب، فيرد إليه معنى الشمال والجنوب في روحه.

من نفس واحدة

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾.

ترد السورة البشر جميعًا إلى أصل واحد، فتهدم أوهام التفاضل العنصري والطبقي. مهما اختلفت الألوان واللغات والأنساب، فالمنبع البشري واحد، والكرامة الأصلية واحدة، والعبودية لله تجمع الجميع.

كل عصبية تبني لنفسها فضلًا ذاتيًا بسبب الدم تصطدم بهذه الحقيقة. لا يختار الإنسان العائلة التي يولد فيها ولا لون جلده، فكيف يحول ما لم يصنعه إلى منصة يحتقر منها غيره؟

﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾.

للإنسان مواضع وأطوار يقيم في بعضها ويُسْتَوْدَعُ في بعضها، وكلها تحت علم الله. حياته ليست سكونًا نهائيًا في الأرض؛ إنه ينتقل من طور إلى طور حتى يصل إلى مستقره الأخير.

وما نسميه استقرارًا في الدنيا يظل مؤقتًا. يبني الإنسان بيتًا ويقول: استقررت، بينما روحه مسافرة إلى أجلها. ليس المطلوب أن يرفض البيت، بل ألا ينسى أنه منزل في الطريق.

الماء الذي ينزل من السماء

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

من ماء واحد تخرج ألوان وروائح وثمار لا تكاد تحصى. يدخل الماء الأرض متشابهًا، ثم يعود في العنب حلاوةً، وفي الزيتون زيتًا، وفي الرمان حبًا مرصوصًا، وفي النخل عذوقًا دانية.

من الذي علم الماء أن يتنوع هكذا؟ ومن أعطى التربة الصامته هذه القدرة على إخراج موائد كاملة للحياة؟

﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا﴾.

تدعو الآية العين إلى الاقتراب من التفاصيل: خضرة تتفتح، وحب يتراكم بعضه فوق بعض. فالقرآن لا يمر بالطبيعة مرورًا عجولًا؛ يقف عند هندسة الحبة، وترتيب الثمر، وتدلي القنوان.

﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾.

تشابه في بعض الهيئة، واختلاف في الطعم والخاصية. والوحدة لا تلغي التنوع، كما أن التنوع لا ينقض وحدة المصدر. إنها يد القدرة الواحدة تكتب في صفحة الأرض صورًا متعددة.

﴿انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾.

أمرٌ بالنظر، لا إلى الثمرة مكتملة فقط، بل إلى رحلتها من بدايتها إلى نضجها. فبين البرعم والينع قصة تدبير صامتة تعمل ليلاً ونهاراً دون أن يسمع الإنسان صوتها.

والقرآن يعيد التربية الجمالية إلى مقام العبادة. النظر في الثمرة ليس لهواً خارج الإيمان؛ قد يكون طريقاً إليه حين تعبر العين من اللون إلى الصنعة، ومن الصنعة إلى الحكمة، ومن الحكمة إلى الحمد.

{إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}.

المشهد واحد، لكن ثماره في القلوب مختلفة. ينظر المؤمن فيرى آية، وينظر الغافل فيرى طعاماً فقط. ليس لأن الطعام ليس نعمة، بل لأن الغافل وقف عند المنفعة ولم يعبر إلى الدلالة.

شركاء من عالم الجن وأبناء بلا علم

{وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ}.

بعد هذا العرض الباهر للخلق، يعود القرآن إلى قبح الشرك: جعلوا بعض المخلوقات شركاء للخالق، مع أن الله خلقهم. فكيف يكون المخلوق شريكاً لمن أوجده؟

ثم اخترعوا لله بنين وبنات بغير علم. إنها مقولات لا تقوم على وحي ولا برهان، وإنما خرق وافتراء نسجه الخيال الديني حين انفصل عن خبر الله.

﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾.

التسبيح تنزيه لله عن كل نقص ومماثلة للمخلوقين. فالله سبحانه أحد صمد، ليس كمثله شيء، لا تحيط به مقاييس البشر، ولا تنطبق عليه حاجات الأسرة والتنازل التي تخص المخلوق المحدود.

كل تصور يقيس الله على خلقه يظلمه من حيث يظن أنه يصفه. ومعرفة الله لا تؤخذ من الخيال المنفلت، بل مما عرّف به نفسه في الوحي، مع تنزيهه عن مشابهة الحوادث.

بديع السماوات والأرض

﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَتَى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

البديع هو المنشئ على غير مثال سابق. من خلق كل شيء لا يحتاج إلى ولد؛ فالولد حاجة المخلوق إلى الامتداد والعون وبقاء النوع، والله غني عن العالمين.

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾.

كل ما سوى الله مخلوق، وهذه الجملة تضع الحد الفاصل بين مقام الربوبية ومقام العبودية. لا يتدرج مخلوق مهما علا حتى يصير جزءاً من الألوهية، ولا تنحدر صفة من صفات الخلق على ذات الله تعالى.

(وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ).

خلقه قائم على علم، وتدبيره محيط بالتفاصيل. ليس شيء في الكون غريباً عن علم صانعه، ولا قلب بين مليارات القلوب يضيع في الكثرة.

ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ

(ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ).

بعد أن عرضت الآيات الحب والنوى، والصبح والليل، والشمس والقمر، والنجوم والماء والثمار، جاءت النتيجة: (فَاعْبُدُوهُ).

لم يكن العرض الكوني معلومات عن الطبيعة؛ كان طريقاً إلى العبودية. فالمعرفة التي لا تقود إلى موقف تظل ناقصة، والنظر الذي يرى الصنعة ولا يشكر الصانع يتوقف قبل غايته.

هو الخالق، فاعبدوه.

وهو الرب، فاستسلموا له.

وهو الوكيل، فتقوا بتدبيره.

العبادة ليست عبثاً يضاف إلى الحياة، بل جواب الحياة عن حقيقة الخلق. ما دام الإنسان مخلوقاً لله، فإن حريته لا تتحقق بالخروج عن العبودية — فهذا مستحيل — بل باختيار العبودية لمن خلقه، والتحرر بها من عبودية ما سواه.

لا تدركه الأبصار

{لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}.

تصل اللغة هنا إلى مقام السجود أمام المعنى. الأبصار محدودة، والله أعظم من أن تحيط به في الدنيا؛ لا تدركه إحاطة، وهو سبحانه يدرك الأبصار كلها، ويعلم حركتها وما وراءها من قصد.

والآية لا تنفي رؤية المؤمنين لربهم في الآخرة كما ثبتت بها النصوص، وإنما تنفي الإحاطة؛ فالرؤية شيء والإدراك المحيط شيء آخر. نؤمن بما أخبر الله ورسوله، من غير تكييف ولا تمثيل، وننزه ربنا: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}.

{وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}.

لطيف لا تدركه الحواس في الدنيا، وتدرك آثار لطفه؛ يدبر للعبد من حيث لا يعلم، ويوصل إليه الرحمة عبر طرق لم يحسبها. خبير بدقائق النفوس، لا تخفى عليه رعدة خوف ولا ومضة رجاء.

وكم من لطف مر بحياة الإنسان في هيئة مصادفة لم يفهمها! باب أغلق فصرفه عن أذى، وتأخير أنضج له الخير، وشخص جاء في لحظة الانكسار، وكلمة سمعها كأنها أرسلت إلى جرحه وحده.

نحن نرى الحادثة، وقد لا نرى شبكة اللطف التي حملتها إلينا.

بصائر من ربكم

﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِخَفِيظٍ﴾.

القرآن بصائر؛ لا يمنح العين ضوءاً فحسب، بل يمنح الوعي قدرةً على رؤية المعنى والغاية والمآل. قد يرى الإنسان الأشياء قبل القرآن، لكنه يراها متفرقة؛ ثم يأتي الوحي فيجمعها داخل رؤية واحدة: خلق، وابتلاء، وعبودية، ورجوع.

﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ﴾.

الله غني عن إيمان العالمين. من اهتدى فإنما ينفذ نفسه، ومن عمي فعليها عماه. فالطاعة لا تزيد في ملك الله، والمعصية لا تنقصه؛ إنما تعود آثار الطريق إلى السائر فيه.

﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِخَفِيظٍ﴾.

مرة أخرى تُرسم حدود وظيفة الرسول: يبلغ البصائر، ولا يجبر القلوب. والحق لا يحتاج إلى إكراه كي يكون حقاً؛ يحتاج إلى عين صادقة تقبل أن تبصر.

﴿وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِيُقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

الآيات نفسها التي تثير في المؤمن العلم والهداية، يتخذها المعاند مادةً لاتهام جديد: درست وتعلمت من غيرك. وهكذا لا تحدد قيمة النور وحده، بل العين

التي تستقبله. الشمس واحدة، لكنها تكشف الطريق للبصير وتزيد الأعمى إحساساً بأنه لا يرى.

وفي هذا المقطع اجتمع كتابان: كتاب الوحي، وكتاب الكون. القرآن نزل مباركاً، والكون فُصلت آياته في الحبة والورقة والنجمة والقطرة. وكلاهما يقول للإنسان حقيقةً واحدة:

إن الذي أنزل الكتاب هو الذي أنزل الماء، والذي فلق الإصباح هو الذي فلق ظلمات القلب بالوحي، والذي أخرج الحي من الميت قادر أن يخرج الإيمان من نفس أحاط بها اليبس.

فإذا اجتمع نور الوحي ببصيرة النظر، لم يعد الكون أشياء صامتة؛ صار كل شيء فيه كلمةً تشير إلى الله، دون أن يكون شيء منه شريكاً له.

الفصل الحادي عشر

أخلاق التوحيد في عالم مزدحم بالباطل

﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾.

بعد أن عرضت السورة بصائر الوحي وآيات الكون، جاء الأمر الذي يحوّل المعرفة إلى طريق: ﴿اتَّبِعْ﴾.

فليس القرآن مشهدًا جماليًا يدهش العقل ثم يترك السلوك على حاله، ولا أفكارًا تضاف إلى خزانة الثقافة؛ إنه هدى يطلب أن يُتبع. والاتباع يعني أن تكون الكلمة الإلهية أمامك، وأن تسير وراءها، لا أن تجعلها خلفك ثم تمضي حيث تريد.

﴿مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾.

في كلمة ﴿رَبِّكَ﴾ معنى التربية والرعاية. فالذي يأمرك هو الذي خلقك ويعلم ما يصلحك، وليست أوامره قيودًا تفرضها قوة غريبة عن طبيعتك؛ إنها هداية الرب لعبده، وصنعة الخالق لفطرة خلقها وهو أعلم بمداخلها ومخارجها.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

التوحيد هو الذي يمنح الاتباع منطقاً. ما دام لا إله إلا الله، فلا مرجعية تعلو على وحيه، ولا هوى يملك حق الاعتراض على حكمه. وقد تختلف اجتهادات

البشر في فهم ما يقبل الاجتهاد، لكنهم لا يملكون أن يجعلوا رغباتهم أصلاً ويطلبوا من النص أن يتبعها.

(وَأَعْرَضَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ).

الإعراض هنا ليس ترك البلاغ، فقد قامت السورة كلها بالحجة والبيان؛ وإنما هو عدم الاستغراق في جدال لا يريد الحق، وعدم السماح لضغطهم أن يعطل طريق الرسالة. فهناك لحظة يصبح فيها استمرار النقاش استنزافاً، ويكون المضي في العمل أفصح من مئة جواب.

لو شاء الله ما أشركوا

(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيزًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ).

كان الله قادراً على أن يمنع الشرك قهراً، لكنه شاء أن تكون الدنيا دار اختيار وابتلاء. فلا يظن حامل الرسالة أن وجود الكفر عجز في الحجة، ولا أن مهمته أن ينتزع الإيمان من القلوب انتزاعاً.

(وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيزًا).

مرة بعد مرة تحرر السورة الداعية من وهم السيطرة. عليه أن يبلغ كاملاً، وأن يكون أميناً وصبوراً، لكنه لا يملك نتائج القلوب. فإذا حمل فوق مسؤوليته مسؤولية استجابتهم، سحق نفسه بما لا يطيق.

إن من الإخلاص أن تبذل، ومن العبودية أن تعلم أن الثمرة ليست ملكك.

وقد يختبئ حب السيطرة داخل الحرص على الهداية؛ يريد الإنسان للناس أن يستجيبوا بالصورة والوقت اللذين اختارهما، فإذا تأخروا غضب لذاته وهو يظن أنه يغضب للحق. أما الرسول ﷺ فيُرد إلى حد العبودية: البلاغ له، والحكم لله.

لا تسبوا آلهتهم

﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدُوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

هنا يبلغ القرآن ذروة أخلاقية في إدارة الصراع العقدي. الأصنام باطلة، وعبادتها شرك، ومع ذلك ينهى المؤمنين عن سبها إذا أدى ذلك إلى أن يسب المشركون الله عدواناً وجهلاً.

إن صحة الموقف لا تبرر خطأ الوسيلة. وقد تكون الكلمة صادقة من حيث وصف الباطل، لكنها تُقال بطريقة توقظ في الخصم أشرس ما فيه، فلا تقربه من الحقيقة بل تدفعه إلى مزيد من العدوان.

الوحي لا يريد من المؤمن أن ينتصر في تبادل الشتائم؛ يريد أن يحفظ جلال الله، وأن يسلك إلى هداية الناس أحكام الطرق. فمن عجز عن التفريق بين تفنيد العقيدة وإهانة صاحبها، قد يفسد بغلظته ما أراد أن يصلحه بحجته.

وهذه الآية تؤسس لفقه المآلات: ليس السؤال فقط، هل الفعل جائز في أصله؟ بل: ماذا سينتج عنه في هذا الموضع؟ فقد تكون كلمة حق سبباً في مفسدة أعظم إذا جُردت من الحكمة.

(كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ).

كل جماعة تنظر إلى موروثها من الداخل، وتحيطه بشعور من القداسة والألفة. وقد يرى الإنسان اعتقاد غيره متناقضًا، بينما لا يرى تناقض اعتقاده؛ لأن العادة تزين ما نشأ عليه.

ومن هنا يحتاج تغيير القنوات إلى أكثر من صدمة. يحتاج إلى حجة تحرر العقل، وأخلاق تفتح القلب، وصبر يراعي أن الإنسان لا يترك في لحظة ما اختلط بهويته أعوامًا.

(ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

ليست مهمة المؤمن أن ينتزع الحكم الأخير لنفسه؛ المرجع إلى الله. يجادل بالحسنى، ويبين الحق، ثم يترك السرائر لمن يعلمها.

الأيمان التي تخفي وراءها المراوغة

(وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ).

بلغوا غاية التشديد في القسم: لو جاءت آية مخصوصة لآمنوا. يبدو الكلام صادقًا، لكن السورة كشفت من قبل أنهم لو لمسوا كتابًا بأيديهم لقالوا: سحر مبين.

فالحلف لا يصنع صدقًا في الإرادة. قد يقسم الإنسان لأنه يريد أن يقنع نفسه بصورة يحب أن يراها عنها، بينما تكشف مواقف الماضية أن المشكلة ليست في العلامة المفقودة.

(قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ).

لا يملك الرسول مخزنًا من المعجزات يخرج منه ما يوافق اقتراحاتهم. الآية ليست استعراضًا لإجبار المتفرجين، بل تجري بحكمة الله وفي وقتها وبالصورة التي يشاء.

(وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ).

ما الذي يضمن أنهم سيؤمنون؟ إن من تجاوز الآيات القائمة قد يعيد تفسير الآية المطلوبة نفسها ليحافظ على موقفه. فالقلب المنحاز لا تنقصه قدرة على إنتاج أسماء جديدة للحقائق القديمة.

عقوبة القلب الأول

(وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ).

هذه الآية ترسم قانونًا مرعبًا في علاقة الإنسان بالهداية: اللحظة الأولى وزنها. حين تأتي الحقيقة إلى القلب واضحة، ثم يردّها صاحبها كبرًا أو مصلحة، لا يضمن أن تبقى قدرته على رؤيتها كما كانت.

(كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ).

إنهم الذين بدأوا الرفض، فكان تقليب القلوب والأبصار جزاءً على اختيارهم. لا يظلمهم الله، لكنهم حين أصروا على الانحراف وُكلوا إلى الطريق الذي أحبوه.

وهنا نفهم خطورة التأجيل الأخلاقي. يقول الإنسان: أعرف الحق، وسأعود إليه لاحقًا. لكنه يتعامل مع قلبه كأنه شيء ثابت ينتظره في مكانه، مع أن كل قرار يغير بنية القلب. ما ترفضه اليوم قد لا تقدر غدًا على رؤيته بالوضوح نفسه.

الطغيان ليس وقوفًا في موضع واحد؛ إنه تيار يحمل صاحبه بعيدًا. و﴿يَعْمَهُونَ﴾ تصور تخبطًا أعمى، حركة كثيرة بلا جهة. قد يظن صاحبها أنه يتقدم، بينما هو يدور داخل متاهته.

لو نزلت الملائكة وكلمهم الموتى

﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾.

يبلغ الافتراض أقصى مدى: ملائكة تنزل، وموتى يتكلمون، وكل شيء يُجمع أمامهم مواجهة؛ ومع ذلك لا يؤمنون إذا بقيت الإرادة الفاسدة ذاتها.

ما أبلغ هذا الكشف! إن المعجزة لا تلغي حرية التأويل عند من يريد الفرار. يستطيع الإنسان أن يرى الخارق، ثم يسميه سحرًا أو خداعًا أو وهمًا. فالإيمان ليس هزيمةً للحواس أمام مشهد مدهش، بل انفتاح القلب للحق بتوفيق الله.

﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾.

لا هداية خارج مشيئته، ولا قدرة للقلب على الاستقامة إلا بمعونته. ولهذا لا يغتر المؤمن بإيمانه، بل يحمد الله ويسأله الثبات. فما اهتدى بقوته وحدها، ولا نجا باستحقاق ذاتي.

لكل نبي عدو

{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا}.

ليس غريباً أن يكون للحق أعداء؛ لقد كان لكل نبي عدو. فالرسالة التي تحرر الإنسان تهدد كل من يستمد نفوذه من استعباده، والوحي الذي يضع ميزاناً فوق البشر يزج الذين يريدون أن يكونوا هم الميزان.

وشياطين الإنس والجن لا يقدمون الباطل عارياً، بل:

{زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا}.

الزخرف زينة تخفي حقيقة الشيء. قد تكون العبارة بدیعة، والمصطلح جذاباً، والخطاب مملوءاً بوعود التحرر، بينما المضمون يقود إلى عبودية أشد.

ليس جمال اللغة دليلاً على صدق الفكرة. قد تبلغ البلاغة مقاماً تصنع فيه للسم وجهاً كوجه الدواء. ولهذا يحتاج الإنسان إلى أن ينفذ من زخرفة اللفظ إلى بنية المعنى، ويسأل: إلى أي تصور عن الله والإنسان والحياة تقودني هذه الكلمات؟

وقد يكون القول المزخرف دينياً أيضاً: نصوص تُنتزع من مواضعها لتخدم ظلماً، وعبارات عن الطاعة تُخفي خلفها خيانة الأمانة، وحديث عن الصبر يراد به إسكات المظلوم لا تركيته. ليس كل ما يرتدي ألباس الدين صادراً عن روحه.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾.

وقوع الشر داخل مشيئة الله الكونية لا يعني محبته له أو رضاه به؛ فقد أذن بوجود الاختبار، وأمر شرعاً بمقاومة الباطل. ثم سيحاسب كل فاعل على اختياره.

﴿وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾.

تبدأ الرحلة بإصغاء القلب، ثم الرضا، ثم الاقتراف. الكلمة تدخل أولاً، فإذا استحسناها القلب سكنت، ثم تحولت إلى فعل.

ولهذا ليست الأفكار أشياء بريئة دائماً؛ إنها بذور سلوك. ما تصغي إليه طويلاً يعيد تشكيل حساسيتك، وما كنت تنكره أول مرة قد تألفه بعد التكرار، ثم تدافع عنه، ثم تمارسه.

وإنكار الآخرة يفتح القلب لزخرف القول؛ لأن الإنسان حين يسقط الحساب الأخير يصبح أكثر استعداداً لقبول الفكرة التي تعدّه بأكبر نصيب عاجل من الدنيا.

أغير الله أبتغي حكماً؟

﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾.

ليس السؤال: هل نحتاج إلى أحكام بشرية تنظم تفاصيل الحياة؟ فهذا من ضرورة الاستخلاف والاجتهاد؛ وإنما السؤال عن المرجعية العليا التي تحكم

إليها التصورات والقيم. أغير الله يُطلب حكمًا فوق حكمه، وهو الذي أنزل الكتاب مفصلاً؟

الإنسان محتاج إلى معيار خارج أهوائه؛ لأنه لا يستطيع أن يكون الخصم والحكم في الوقت نفسه. وإذا جعل شهوته ميزانه، برر لنفسه ما يدينه في غيره. وإذا جعل القوة مصدر الحق، صار انتصار الظالم دليلاً على عدله.

الوحي وحده يضع فوق الجميع ميزاناً لا يتشكل بحسب مصلحة الأقوى.

﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾.

المعرفة الصادقة في الكتب السابقة تشهد للوحي الخاتم. ثم يأتي النهي عن الامتراء تثبيتاً، لا لأن النبي ﷺ شك، بل لقطع الطريق على كل ضغط يريد زحزحة اليقين.

كَلِمَةٌ تَمَتْ صِدْقًا وَعَدْلًا

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

تمت كلمة الله في أخبارها صدقاً، وفي أحكامها عدلاً. فما أخبر به لا يخالطه كذب، وما حكم به لا يشوبه ظلم.

﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾.

بهذين الجناحين يستقيم الوعي: معرفة الواقع كما هو، والحكم عليه كما ينبغي. وقد يملك البشر بعض الصدق في الوصف ثم يظلمون في الحكم، أو يطلبون

العدل بناءً على معلومات ناقصة. أما كلمة الله فجمعت كمال الخبر وكمال الميزان.

{لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ}

قد يحرف الإنسان دلالةً في وعيه، أو يخفي حكماً عن الناس، لكنه لا يغير حقيقة كلمة الله. تظل قائمةً تشهد عليه حتى لو نجح زمناً في حجبها.

{وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}

يسمع ما يقال باسم دينه، ويعلم ما تخفيه النيات خلف التأويلات. فلا تغره فصاحة المتحدث، ولا يختلط عليه طالب الحق بمن يستخدم الحق ستاراً.

الكثرة ليست دليلاً

{وَإِنْ تُطِيعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ}

تهدم الآية واحداً من أقدم أصنام العقل: الكثرة. فالناس بطبعهم يطمنون إلى الطريق الممتلئ بالسائرين، ويستوحشون من الحق حين يقل أصحابه. لكن العدد يخبرك عن الانتشار، لا عن الحقيقة.

الأكثرية قد ترث الخطأ نفسه، وتتأثر بالدعاية ذاتها، وتخضع للخوف نفسه. وإذا اجتمعت آلاف المرايا على عكس صورة مشوهة، لا تصير الصورة صحيحة.

وهذا لا يعني أن مخالفة الأكثرية فضيلة في ذاتها؛ فقد تكون الكثرة على حق والأقلية على باطل. إنما المعنى أن العدد ليس دليلاً مستقلاً، وأن الحق يُعرف ببرهانه لا بإحصاء أتباعه.

﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾.

الظن إذا دخل مقام اليقين أضل. يبني الإنسان موقفاً مصيرياً على شائعة أو توقع أو موروث لم يفحصه، ثم يدافع عنه كأنه علم. و﴿يَخْرُصُونَ﴾: يقدرون ويكذبون بلا حجة، يملؤون فراغ المعرفة بادعاء مريح.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾.

الحكم النهائي لله، لا للجمهور ولا للصورة التي يصنعها الناس عن أنفسهم. قد يرفع المجتمع ضالاً إلى مقام القدوة، وقد يهشم مهتدياً؛ لكن التصنيف الأرضي لا يغير مواقع القلوب في علم الله.

طعام يمر من باب العقيدة

﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾.

تنتقل السورة من القضايا الكلية إلى الطعام؛ لتقول إن التوحيد لا يبقى في الذهن، بل ينزل إلى تفاصيل المائدة. حتى اللقمة تدخل في معنى العبودية: يُذكر اسم الله، ويُعترف بأن الحياة التي تزهق والطعام الذي يُنال كلاهما من ملكه.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرَرْتُمْ إِلَيْهِ﴾.

الحلال والحرام لا يصنعهما ذوق الكهان ولا أوهام المجتمع. الله هو الذي يفصل، وقد جعل للضرورة حكمها؛ لأن الشريعة لا تتجاهل ضعف الإنسان وظروفه، بل تحفظ الحياة وهي تقيم حدود التكليف.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

حين يدخل الهوى مجال التشريع، يحرم الإنسان ما أحل الله ويحل ما حرم، ثم يكسو رغبته ثوب المقدس. والجهل إذا اقترن بالهوى لا يبقى قصورًا فرديًا؛ يتحول إلى قوة تضليل للآخرين.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾.

الاعتداء هو تجاوز الحد الذي وضعه الله، سواء بإباحة الحرام أو تحريم الحلال. فالتشدد الخارج عن الوحي ليس ورعًا، كما أن التساهل معه ليس رحمة. الميزان هو حكم الله، لا اتجاه الانفعال.

ظاهر الإثم وباطنه

﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾.

للمعصية ظاهر يراه الناس، وباطن قد لا يراه إلا الله: نية فاسدة، وحسد مستور، وكبر يتخفى في ثوب الكرامة، وشهوة للمدح وراء فعل صالح.

الدين لا يكتفي بتجميل واجهة الإنسان. قد يكون الظاهر منضبطاً لأن المجتمع يراقبه، بينما الباطن تعيث فيه الآفات. والتقوى الحقيقية تبدأ حيث تنتهي أعين الناس.

لكن العناية بالباطن لا تعني إهمال الظاهر؛ الآية تأمر بتركهما معاً. فبعض الناس يبرر سوء عمله بادعاء نقاء قلبه، كأن القلب الصالح يمكن أن يصر على ظلم الجوارح. وآخرون ينشغلون بالصورة حتى ينسوا أن الله يعلم الباعث.

الإصلاح القرآني لا يقبل إنساناً منقسماً: مظهرًا للناس، وحقيقةً أخرى في الخفاء.

أَكَلَةُ يُوْحِي بِهَا الشَّيْطَانُ إِلَى أَوْلِيَائِهِ

﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾.

حتى الجدل حول الطعام لم يكن منفصلاً عن المعركة العقديّة. كانت الشياطين توحى إلى أوليائها بشبهات يلبسون بها الباطل ثوب العقل: كيف تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما مات بقدر الله؟ عبارة تبدو منطقية في ظاهرها، لكنها تتجاهل أن التحليل والتحريم حق لله، وأن القياس لا يحاكم النص الثابت.

ليس كل سؤال بريئاً، ولا كل منطق سالم المقدمات. قد تُصاغ الشبهة بذكاء، لكنها تقوم على إسقاط أصل حاسم ثم بناء الحجة بعد حذفه.

﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾.

حين يطيع الإنسان غير الله في منازعته حق التشريع، وقد علم حكم الله، لا تبقى القضية مسألة طعام. إنها تمس مصدر الأمر ذاته. فالشرك قد يدخل من

باب المعبد، وقد يدخل من باب التشريع حين يُمنح البشر حق التحليل والتحرير
استقلالاً عن الله.

الميت الذي مشى بالنور

﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي
الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾.

يالها من صورة تختصر قصة الهداية كلها! إنسان كان ميتاً، لا بموت الجسد،
بل بموت المعنى؛ يتحرك ويأكل ويتكلم، لكن روحه منفصلة عن غايتها. ثم
جاءه الوحي فأحياه.

الإيمان ليس تحسیناً طفيفاً في السلوك؛ إنه بعث. يعيد إلى الإنسان قلبه بعد أن
كان جهازاً للرغبات، ويمنحه غايةً بعد أن كانت أيامه تتكرر بلا جهة.

﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾.

لم يُعطِ النور ليحتفظ به في عزلة، بل ليمشي به بين الناس. يرى به الأشخاص
والأحداث والقيم، ويميز الطريق حين تختلط اللافتات.

النور لا يلغي صعوبة الحياة، لكنه يمنعها من أن تصبح متاهة. قد يمر المؤمن
بالألم نفسه الذي يمر به غيره، لكنه يراه داخل حكمة وابتلاء ورجاء؛ بينما
يراه من لا يؤمن جداراً بلا نافذة.

﴿كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾.

الظلمات تحيط به حتى أصبحت كأنها مثله ومقامه. وكلما حاول الخروج استعان بالأدوات نفسها التي أدخلته: هوى يعالج به أثر الهوى، وشهوة يطفئ بها فراغ الشهوة، وتيه يهرب به من سؤال التيه.

﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

لو رأوا القبح كما هو لربما تركوه، لكنه زُيِّنَ لهم. وهنا تتجلى نعمة النور: أن ترى الشيء بحقيقته قبل أن تدفع ثمنه.

أكابر المجرمين

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

للإجرام أكابر؛ أشخاص يملكون النفوذ والمال والقدرة على صناعة الرواية. لا يمارسون الباطل فرادى فقط، بل يحولونه إلى نظام، ويمنحونه مؤسسات تحرسه، ولغةً تجمله، ومصالح تربط الناس به.

المجرم الصغير يرتكب الجريمة، أما كبير المجرمين فقد يعيد تعريفها حتى تبدو فضيلة. يملك القدرة على تسمية النهب تنمية، والقمع استقراراً، والتمييز أصالةً، والخيانة حكمةً.

(لِيَمْكُرُوا فِيهَا).

المكر ترتيب خفي لإيصال الضرر. يعمل في الظلام؛ لأن ظهوره يفسده. لكنهم في الحقيقة يمكرون بأنفسهم، فكل شبكة ظلم يبنونها تتحول إلى حجة عليهم، وكل نجاح مؤقت يوسع مساحة الحساب.

قد يظن الماكر أنه هزم شخصاً أو أخفى حقيقة، لكنه لا يستطيع إخفاء شيء عن علم الله. والحق الذي يُدفن بالقوة لا يموت؛ قد يبقى تحت التراب كالحبة حتى يأتي وقت انشقاقه.

حين يستكثرون الرسالة على أهلها

(وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ).

لم يعودوا يطلبون دليلاً، بل منصّباً. لن يؤمنوا حتى يؤتوا مثل ما أُوتي الرسل! لقد تحولت القضية من بحث عن الحق إلى غيره من حامل الحق. هذا هو الكبر حين يدخل المعرفة: لا يسأل الإنسان هل الرسالة صحيحة، بل لماذا لم تأت من خلالي؟ ويستثقل أن يتعلم من شخص لا يرى له عليه فضلاً اجتماعياً.

(اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ).

الرسالة اصطفاء إلهي، لا جائزة تتنافس عليها الأهواء. والله يعلم القلوب التي تطيق حمل الوحي بأمانته، والنفوس التي لا تحول النعمة إلى مجد شخصي.

﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾.

طلبوا العلو فكان مآلهم الصَّغار. فالذي يتكبر عن الحق لا يحفظ كرامته؛ يهدمها. والعظمة التي تُبنى على إذلال الآخرين تحمل داخلها نهايتها المهينة.

انشراح الصدر وضيق الصعود

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾.

الهداية ليست فكرة تدخل العقل فقط؛ إنها انشراح في الصدر. تتسع النفس للحق، وتجد في الإسلام موطنها لا قيدها. قد تكون التكاليف ثقيلةً على الهوى، لكنها خفيفة على القلب الذي عرف من يأمره ولماذا يطيعه.

شرح الصدر لا يعني غياب المشقة أو الأسئلة، بل وجود سعةٍ تستوعبها دون أن تنقلب إلى رفض. يصبح القلب قادرًا على حمل الحقيقة حتى حين تخالف رغباته.

﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾.

يرسم القرآن الضيق في صورة صعود شاق ينقطع معه النفس. يسمع الإنسان حكم الله فيشعر كأن صدره لا يتسع له، لا لأن الوحي ضيق، بل لأن الهوى ملأ المساحة الداخلية فلم يترك للحقيقة موضعًا.

كلما علا المتصعد اشتد عليه التنفس، وكلما توغل المعرض في ضلاله صار رجوعه أثقل على كبريائه. إنه يحمل فوقه تاريخًا من المواقف التي يحتاج إلى الاعتراف بخطئها، فيفضل استمرار الاختناق على تواضع العودة.

(كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ).

ذلك جزاء الإعراض، لا ظلماً من الله. اختاروا ألا يفتحوا صدورهم للنور، فاستحكم عليهم ضيقهم.

هذا صراط ربك مستقيماً

(وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ).

بعد كل تلك الطرق المتشعبة، يشير القرآن إلى طريق واحد: (هَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ).

نسبه إلى الرب؛ لأنه طريق تربيته ورحمته، لا متاهةً يريد بها إرهاب العباد. وهو مستقيم؛ لا تتناقض بدايته مع نهايته، ولا يحتاج سالكه أن يبيع جزءاً من فطرته ليحفظ جزءاً آخر.

الهوى يقدم طرقاً تبدو قصيرة، لكنها ملتوية؛ تمنح لذةً عاجلة ثم تعيد الإنسان إلى فراغ أكبر. أما الصراط فقد تكون عليه تكاليف وصبر، لكنه لا يخون صاحبه عند النهاية.

(قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ).

الذكرى ليست إضافة معرفة جديدة دائماً؛ قد تكون استعادةً لما عرفته الفطرة ثم غطته الحياة. والوحي يزيل الغبار لا ليضع في الإنسان شيئاً غريباً عنه، بل ليعيده إلى العهد الكامن في أصل خلقته.

دار السلام

(لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

تنتهي الرحلة إلى دار السلام. سلام من الخوف، ومن الفقد، ومن المرض، ومن الخيانة، ومن صراع الإنسان مع نفسه. لا موت يقطع الأُنس، ولا ظلم يهدد الكرامة، ولا ذاكرة موجعة تباغت القلب.

(عِنْدَ رَبِّهِمْ).

شرف الدار من قربها؛ فليست الجنة نعيم الأشياء وحدها، بل مقام الرضا والكرامة عند الله. وكل سلام عرفه الإنسان في الدنيا ليس إلا قطرةً من معنى تلك الدار.

(وَهُوَ وَلِيُّهُمْ).

تعود الولاية التي بدأ بها سؤال السورة: (أَغَيْرَ اللَّهِ اتَّخَذُ وَلِيًّا)؟ من اتخذ الله وليًّا في الدنيا أوصله الله إلى دار السلام في الآخرة. لم تتبدل وجهته بين الطريق والنهاية؛ عاش في ولاية الله، ثم عاد إلى جوار رحمته.

(بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

الأعمال سبب، والنجاة برحمة الله وفضله. لم يكن الصراط فكرةً في أذهانهم؛ ساروا عليه. قاوموا زخرف القول، وتركوا ظاهر الإثم وباطنه، وأبوا أن تجعلهم الكثرة غرباء عن الحق، وحفظوا قلوبهم من أن تسلم للوهم.

وهكذا ترسم هذه الآيات أخلاق الإنسان الموحّد: يتبع الوحي دون أن يستعبد الناس، ويرفض الشرك دون أن يسب أصحابه، ويثبت على الحق دون أن يغتر بنفسه، ويميز القول بزنته لا بزخرفته، ويحفظ باطنه كما يحفظ ظاهره.

إن التوحيد ليس كلمةً تخرج من الفم ثم تترك السلوك نهبًا للأهواء؛ إنه نور يمشي به صاحبه في الناس، حتى يبلغ دارًا لا ظلمة فيها.

الفصل الثاني عشر

حين يتحول الهوى إلى شريعة

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا﴾.

بعد أن ختم المقطع السابق بولاية الله للمؤمنين، تعرض السورة صورة الولاية المقابلة: ولاية الشياطين للإنسان، والإنسان للشياطين.

لقد استكثروا من الإنسان إغواءً وإضلالاً، واستمتع بعضهم ببعض. الشياطين وجدت في البشر أدوات تنتشر بها الباطل، والبشر وجدوا في وساوسها ما يزين لهم شهواتهم ويمنح انحرافهم مبررات.

إنها علاقة منفعة متبادلة، لكنها منفعة تنتهي بهلاك الطرفين. فالشيطان يعد الإنسان بالحرية من أمر الله، ثم يقوده إلى عبودية الهوى. والإنسان يمنحه طاعته، ثم يكتشف أن الذي اتخذه دليلاً لم يكن يعرف طريق النجاة.

﴿وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا﴾.

انتهى زمن الاستمتاع، وظهر الحساب الذي كان مختبئاً خلف اللذة. فكل متعة محرمة تحمل أجلاً لا تتجاوزه؛ تبدو أثناءها كأنها العالم كله، ثم تنقضي وتبقى تبعثها.

﴿قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

الحكم صادر عن حكمة وعلم، لا عن ظلم أو غضب مجرد، تعالى الله عن ذلك. يعلم ما اختاروا، وما قامت عليهم به الحجة، وما أخفوه من الإصرار. ولهذا تختم الآية بالحكمة والعلم؛ لئلا يتصور أحد أن الجزاء منفصل عن كمال العدل.

الظالمون أولياء بعض

﴿وكَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

الظلم لا يبقى فعلاً فردياً؛ إنه يصنع شبكات من الولاية. يجذب الظالم من يشبهه، ويحتاج كلاهما إلى الآخر: أحدهما يصنع القرار، وآخر يزينه، وثالث ينفذه، ورابع يبرر نتائجه.

وقد تكون ولاية الظالم للظالم عقوبةً لهما. يظن كل واحد أنه وجد نصيراً، لكنه وجد مرآةً تكبر أسوأ ما فيه. فإذا اجتمع الطمع بالطغيان، والجهل بالتعصب، والخوف بالنفاق، نشأ نظام يعاقب أفرادَهُ بعضهم ببعض.

﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

لم تُفرض عليهم هذه الولاية بلا سبب؛ صنعتها أعمالهم. فالإنسان يختار في كل يوم نوع المجتمع الذي يقوى به: حين يصمت عن ظلم ينفعه، أو يبرر فساد جماعته، أو يمنح ولاءه لمن يحتقر كرامته.

الطغيان لا يبنيه الطاغية وحده؛ يبنيه أيضاً الذين يمنحونه أكتافهم ثم يشكون من ارتفاعه فوقهم.

ألم تأتكم رسل منكم؟

﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾.

يقام السؤال يوم القيامة لتظهر عدالة الله: ألم يأتكم بيان قبل الجزاء؟ ألم تسمعوا الآيات؟ ألم يكشف لكم الطريق؟

﴿قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا﴾.

سقطت المجادلة، وصار الإنسان شاهداً على نفسه. فقد يستطيع في الدنيا أن يصنع روايةً تقنع الآخرين، لكنه يحمل في داخله سجلاً يعرف به مواضع التهرب والاختيار.

﴿وَعَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾.

الدنيا لم تجبرهم، لكنها غرّتهم حين صدقوا ظاهرها ونسوا نهايتها. كان زينها حقيقياً من حيث وجوده، لكن الخديعة وقعت حين ظنوه دائماً، أو حسبوا أنه القيمة العليا التي يجوز أن يضحوا من أجلها بالآخرة.

والاعتراف الذي رفضوه في زمن العمل نطقوا به في زمن الجزاء. ليست الحقيقة عاجزةً عن انتزاع الشهادة؛ لكنها أرادت منهم شهادةً حرة تنجيهم قبل أن تأتي الشهادة القسرية التي لا تغير المصير.

لا عذاب بلا بيان

﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقَرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾.

هذه قاعدة من قواعد العدل الإلهي: لا يؤاخذ الله قومًا على غفلة قبل قيام الحجة وبلوغ البيان. فهو سبحانه لا يظلم مثقال ذرة، ولا يهلك أمةً دون إنذار يكشف لها طريق النجاة.

والآية تعلم الإنسان ألا ينسب إلى الله صورة الحاكم الذي يترصد الخطأ ليعاقب عليه. رسالاته وإنذاراته وآياته كلها شواهد أن الرحمة تسبق الحساب، وأن الباب يُفتح قبل أن يُغلق.

لكن البيان إذا جاء صار مسؤولية. فالآية التي تنقذك إن اتبعتها تصبح حجةً عليك إن أعرضت عنها.

﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

ليس الناس كتلةً واحدةً في الجزاء؛ لكل درجات بحسب عمله. يعلم الله الفروق الدقيقة التي تضيع في أحكام البشر: بين من قصر ضعفًا ثم تاب، ومن أصر استكبارًا، وبين من بحث عن الحق فلم يبلغه كما ينبغي، ومن عرفه ثم باعه.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ﴾.

لا يغيب عنه إحسان خفي، ولا ظلم خبائته الملفات، ولا دمة محاها صاحبها قبل أن يراه أحد. إن عدالة الله تبدأ من إحاطة علمه؛ فالحاكم الذي يجهل بعض القضية قد يظلم، أما الله فلا تخفى عليه حقيقة.

الغني ذو الرحمة

(وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ).

الله غني عن طاعة العباد، ومع ذلك هو ذو الرحمة. لا يرحمهم لحاجة إلى عبادتهم، بل تفضلاً منه. وهذه الرحمة الخالصة لا تشبه رحمة البشر التي قد تختلط بالحاجة أو انتظار المقابل.

(إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ).

لا يحمل أحد في وجوده ضماناً يجعل العالم محتاجاً إليه. يمكن أن يذهب جيل ويأتي آخر، كما جاءت الأجيال الحالية بعد قوم مضوا. فالاستخلاف فرصة، لا وثيقة ملكية أبدية.

الأمة التي تحمل الرسالة لا ينبغي أن تظن أن الرسالة متوقفة عليها. إن ضيعت أمانتها استبدل الله بها غيرها. وكذلك الجماعات والأفراد: يرفعهم الحق بقدر ما يحملونه، فإذا جعلوه تابعاً لمصالحهم لم يضرروا إلا أنفسهم.

(إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ).

قد يهرب الإنسان من الناس، ويزور الوثائق، ويغير الأماكن، لكنه لا يعجز الله. وما وعد به آتٍ؛ لأن الزمن كله يتحرك داخل ملك الله نحو الموعد الذي حدده.

(قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ).

ليس هذا إقراراً لهم على باطلهم، بل إنذار يبلغ غاية الحسم: امضوا على طريقكم بعد قيام الحجة، وأنا ثابت على طريقي، وستكشف العقوبة أي الطريقين كان يحمل النجاة.

فالطرق لا تُعرف ببداياتها اللامعة، بل بنهاياتها. قد يبدأ الظلم قوياً، محاطاً بالحرص والتصفيق، لكنه لا يفلح. النجاح المؤقت قد يكون من فصول الاستدراج، أما الفلاح فلا ينفصل عن العدل.

قسمة اخترعها الهوى

(وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا).

هنا تدخل السورة إلى تفاصيل النظام الوثني. لم يكن الشرك فكرة مجردة، بل أنشأ اقتصاداً وطقوساً وتقسيماً للثروة. جعلوا مما خلق الله نصيباً لله ونصيباً لشركائهم، كأن الشركاء خلقوا شيئاً حتى يكون لهم فيه حق!

(بِزَعْمِهِمْ).

كلمة صغيرة تسقط القداسة المصنوعة. ما ظنوه تشريعاً لم يكن إلا زعماً بشرياً. لم ينزل به وحي، ولم يقم عليه برهان؛ لكنه تكرر حتى صار عرفاً، ثم اكتسب العرف مهابة الدين.

﴿فَمَا كَانَ لَشُرْكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرْكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

كان ميزانهم منحازًا حتى داخل القسمة الباطلة. يحرسون نصيب الأصنام، أما ما جعلوه لله فيتسرب إليها. وهكذا يكشف المال حقيقة الاعتقاد؛ فاللسان يقول لله، لكن المصالح تحرس نصيب الشركاء.

وما أكثر ما يتكرر هذا المرض في صور أخرى: يُعلن أن العمل لله، ثم تذهب ثماره إلى المجد الشخصي؛ ويرفع شعار المصلحة العامة، ثم تُحوّل الخيرات إلى دوائر النفوذ؛ وتُطلب التضحيات من الضعفاء، بينما تُصان امتيازات الأقوياء.

إن النظام الفاسد يملك دائماً لغةً مقدسة تخفي قسمةً غير عادلة.

حين يبلغ الشرك حدَّ قتل الأبناء

﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَائُهُمْ لِيُزْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾.

هذه هي النهاية الأخلاقية للعقيدة حين تزيج: قد يبلغ الإنسان أن يرى قتل ولده طاعةً وقربة. لم يعد الباطل مجرد خطأ في التصور؛ صار قوةً تقلب الرحمة قسوةً، والجريمة عبادةً.

﴿زَيْنَ﴾.

لو رأوا الفعل عاريًا من الزينة لفرغوا منه، لكن الشركاء أحاطوه بالأسماء والشعائر والخوف حتى استطاع الأب أن يسكت صوت الفطرة في داخله.

وهذا أخطر ما يفعله الانحراف العقدي: لا يغير ما يعتقده الإنسان عن السماء فقط؛ يغير استجابته لأوضح معاني الرحمة في الأرض. فإذا اختل تصور الإله، انحدر السلوك دون أن يشعر صاحبه بمقدار انحداره.

﴿لِيُرْذُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾.

إهلاك في الواقع، وتلبيس في الوعي. يرتكبون الجريمة، ثم يفقدون القدرة على تسميتها جريمة. وحين يجتمع فساد الفعل بفساد الاسم، يصبح الرجوع أصعب؛ لأن التوبة تحتاج أولاً إلى استرداد اللغة التي تكشف الحقيقة.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾.

لم يقع شيء خارج مشيئة الله الكونية، لكنه لم يأمرهم به ولم يرضه منهم. لهم اختيارهم الذي سيحاسبون عليه. فترك افتراءهم بعد البيان؛ فلن يحمهم من العقابة أنهم نسبوه زوراً إلى الدين.

أنعام وحروث محجورة

﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْتُ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءٌ عَلَيْهِ﴾.

يصنع الهوى قوائم التحليل والتحريم، ثم ينسبها إلى الله. هذه أنعام لا يأكلها إلا فريق معين، وأخرى لا تُركب، وثالثة تُذبح للأصنام ولا يذكر اسم الله عليها.

وفي كل حكم تتسلل مصالح الكهنة والطبقات النافذة. فالتشريع البشري حين يتقدس بلا وحي يصبح وسيلةً لتوزيع الامتيازات: من يحق له أن يأكل؟ ومن يُحرم؟ ومن يملك الوصول إلى المقدس؟

(بَرَّ عَمِهِمْ) و(افْتَرَاءً عَلَيْهِ).

بين الكلمتين ينكشف مصدر الشريعة الزائفة: زعم من الإنسان، ثم نسبة إلى الله. يبدأ الهوى بشرياً، ثم يبحث عن ختم سماوي ليمنع الناس من مناقشته. (سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ).

قد ينجح الافتراء في حكم المجتمع طويلاً، لكنه لا ينجو من حساب الله. كل من حرم الناس حقاً باسم الله، أو منح نفسه امتيازاً لم يمنحه الوحي، سيقف أمام صاحب الاسم الذي استعمله ستاراً.

ما في البطون للذكور وحدهم

(وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَرْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُن مِّثْقَالُهُ فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ).

تنتج العقيدة الفاسدة تمييزاً اجتماعياً فاسداً. جعلوا ما في بطون بعض الأنعام حكراً على الذكور، وحرّموا النساء، ثم ناقضوا أنفسهم إذا خرج ميثاً فجعلوهم فيه شركاء.

لا منطق ثابتاً، ولا وحي؛ إنها امتيازات القوة حين تكتب الأحكام لمصلحتها. يأخذ الأقوياء الطيب، فإذا صار الشيء مكروهاً أشركوا فيه من حرّموا هم قبل قليل.

وهكذا يفعل كل نظام تمييز: يحتكر المنافع لفئة، ويوزع الأعباء على الجميع. ثم يصنع لهذا الظلم قصةً ثقافية أو دينية تجعله يبدو طبيعيًا.

(سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ).

سيجزئهم على ما وصفوا وكذبوا. هو حكيم في الحكم، عليم بالنيات والمصالح المختبئة وراء الأقوال.

الذين خسروا أبناءهم وعقولهم

(قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ).

الخسارة مزدوجة: قتلوا أولادهم، وحرّموا أنفسهم رزق الله. خسروا الإنسان والنعمة، ثم حسبوا الخسارة دينًا.

(سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ).

السفه خفة العقل واضطراب حكمه. وليس كل تدين علامة رشد؛ قد يصير التدين نفسه ميدانًا للسفه إذا انفصل عن الوحي والعلم، وصار تابعًا للخرافة والخوف.

العاطفة الدينية لا تكفي لتصحيح الفعل. قد يتحمس الإنسان لباطل يظنه قربي، فيكون إخلاصه لخطئه سببًا في زيادة ضرره. فلا بد من العلم الذي يهدي الحماسة، والوحي الذي يحاكم الشعور.

جنات معروشات وغير معروشات

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾.

بعد أن عرضت السورة ما حرموه بأوهامهم، تعيد النعمة إلى مصدرها: الله هو الذي أنشأ الجنات. بعضها معروش يقوم على ما يرفعه الإنسان، وبعضها يستقل بسوقه وأغصانه. والنخل والزرع مختلف الثمر والطعم واللون.

التنوع كله خارج من إرادة واحدة. لم يحتج اختلاف الثمار إلى تعدد الآلهة؛ بل كان شاهداً على سعة قدرة الإله الواحد.

﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾.

الأمر بالأكل يهدم التحريم الوثني. لقد خلق الله الطيبات لينتفع بها عباده، فلا يحق لأحد أن يحاصر نعمة الله بخرافة من عنده.

الإسلام لا يعادي بهجة الحياة؛ يأذن بالأكل من الثمر حين يثمر. لكنه لا يترك النعمة تنغلق على لذة صاحبها:

﴿وَأَثُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾.

في يوم الحصاد، حين يفرح المالك بما جمع، يذكره الوحي أن في الثمرة حقاً لغيره. فالنعم لا تكتمل بالاستحواذ، بل بالشكر الذي يصل إلى المحتاج.

ليس الفقير حادثاً بعيداً عن الاقتصاد؛ له حق يحضر في لحظة الإنتاج ذاتها. وبهذا يمنع القرآن المال من أن يصنع جداراً بين الإنسان ومجتمعه.

(وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ).

بين التحريم الزائف والإسراف المفسد يقيم الوحي التوازن. لا تحرم الطيب، ولا تبده. فالنعمة أمانة، والإسراف اعتداء على مقدارها ووظيفتها وحقوق الآخرين فيها.

قد يكون الإسراف في الاستهلاك، وقد يكون في الاستعراض الذي يحول النعمة إلى وسيلة لإيلاء المحروم. وقد يسرف الإنسان حتى فيما ظاهره الخير إذا تجاوز الحكمة وأضاع ما تحت يده.

حمولة وفرشاً

(وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَشَاءُ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ).

من الأنعام ما يحمل الأثقال، ومنها ما هو أصغر أو يُنتفع بصوفه ووبره وقربه من الأرض. تنوعت المنافع، والمصدر واحد: (مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ).

حين يعرف الإنسان أن الطعام رزق، يأكله بالشكر لا بالاستعلاء. فلا يحتقر من قل رزقه، ولا ينسب ما عنده إلى ذكائه وحده.

ثم يربط التحريم الباطل بخطوات الشيطان. فالشيطان لا يقود الإنسان غالباً بقفزة واحدة؛ يدعوه إلى خطوة تبدو صغيرة، ثم يبني عليها أخرى، حتى يجد نفسه في نهاية طريق لم يقرر في بدايته أنه يريد بلوغها.

يبدأ باحترام عرف، ثم بمنع السؤال عنه، ثم بمنحه قداسة، ثم باتهام من يخالفه، حتى يصير الزعم ديناً كاملاً.

ثمانية أزواج وسؤال الحجة

﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعَزِ اثْنَيْنِ قُلْ الذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

تدخل الحجة إلى تفاصيل دعواهم. من الضأن ذكر وأنثى، ومن المعز ذكر وأنثى؛ فما الذي حُرِّم؟ أهو الذكران؟ إذن ينبغي أن يكون كل ذكر حراماً. أم الأنثيان؟ إذن كل أنثى حرام. أم ما في الأرحام؟ إذن يشمل الذكور والإناث.

بهذا السؤال يكشف القرآن اضطراب التشريع الذي لا يقوم على أصل. لقد كانوا يحرمون أفراداً وحالات بلا قاعدة مستقيمة، فتأتي الحجة لتلزمهم بنتائج زعمهم.

﴿نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ﴾.

هذه هي الكلمة الفاصلة: أين العلم؟ ليس الموروث علماً لمجرد قدمه، ولا العادة برهاناً لمجرد انتشارها، ولا ثقة المتحدث دليلاً على صدقه.

ثم يذكر الإبل والبقر: ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ الذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ﴾.

يتكرر السؤال؛ لأن الباطل يتهاوى عند إخضاعه للاتساق. قد يعيش طويلاً في منطقة العبارات العامة، فإذا طُلبت منه القاعدة والدليل ظهر تناقضه.

﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا﴾.

هل حضرتم حين أوصى الله بهذا التحريم؟ إن لم يكن وحي ولا علم ولا شهادة، فمن أين جاء الحكم؟

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

يتضاعف الظلم حين لا يكتفي المفتري بضلاله، بل يصنع من كذبه نظامًا يضل الناس. يستخدم اسم الله لإغلاق باب السؤال، فيصبح الافتراء أداة حكم لا مجرد مقولة.

المحرمات كما يبينها الوحي

﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾.

بعد قوائهم المتخيلة، يأتي البيان من مصدره الصحيح: ﴿فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ﴾. فالنبي لا يحرم من ذاته، وإنما ينقل حكم الوحي.

وتذكر الآية المحرمات في هذا السياق، ولا يلزم منها حصر كل محرم في الشريعة مطلقًا؛ فقد جاءت السنة وأدلة أخرى بأحكام بيّنتها. لكن الغرض هنا إسقاط التحريم الوثني وإعادة التشريع إلى الله.

ثم يأتي باب الضرورة: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

الشرعية التي تقيم الحدود تعرف لحظة العجز، فتحفظ حياة الإنسان ولا تحولها إلى ضحية للتكليف. فالضرورة تقدر بقدرها؛ لابغي ولا تجاوز، لكن لا هلاك باسم التمسك بصورة الحكم.

وتختتم بالمغفرة والرحمة؛ لأن التشريع صادر عن رب يعلم ضعف الإنسان، لا عن نظام جامد لا يرى إلا النص منفصلاً عن حال المكلف.

تحريمٌ كان جزاءً

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾.

بعض التحريمات التي فرضت على اليهود كانت جزاءً على بغيهم، كما بين القرآن في مواضع أخرى. وهذا يوضح أن الأحكام قد تتصل بحال أمة وتربيتها وعقوبتها، فلا يجوز نقلها بالأهواء أو جعلها تشريعاً عاماً من غير دليل.

﴿ذَلِكَ جَزَايَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾.

البغي قد يضيق على صاحبه ما كان واسعاً. فالذنوب لا تبقى في منطقة الغيب وحدها؛ قد تتحول آثارها إلى تعقيدات في الحياة، وقيود تصنعها الأمة بأعمالها ثم تعاني منها.

وتختتم الآية بالصدق، في مقابل الافتراء الذي ملأ هذا المقطع. الله صادق فيما أخبر وشرع، والمشركون يزعمون ويختلقون. وبين الصدق والزعم تقوم معركة المرجعية كلها.

لقد كشفت سورة الأنعام هنا أن الشرك لا يقف عند صنم يُعبد؛ إنه يتحول إلى شريعة تنظم الطعام والمال، وتقسم المجتمع، وتمنح الامتيازات، وقد تبلغ حد قتل الأبناء.

فإذا اختل مصدر التلقي، لم يعد الإنسان يخطئ في معلومة واحدة؛ يبني عالمًا كاملاً من الخطأ، ثم يعيش داخله باسم الدين.

أما التوحيد فيعيد الأشياء إلى مواضعها: الخلق لله، والرزق لله، والتحليل والتحريم لله، والنعمة تؤكل بشكر، ويؤدى حقها، ويمنع الإسراف فيها. وهكذا لا يحرر التوحيد الضمير وحده؛ يحرر المائدة والمال والعلاقة الاجتماعية من كهانة الهوى.

الفصل الثالث عشر

من فوضى التحريم إلى ميثاق الإنسان الموحد

(فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ).

بعد أن كشفت السورة افتراءهم في التحليل والتحريم، فتحت أمام المكذبين بابين يرسمان كمال التعامل الإلهي مع الإنسان: رحمة واسعة، وبأس لا يُرد عن المجرمين.

ليست الرحمة ضعفاً في العدل، ولا العدل نقيضاً للرحمة. الله سبحانه ذو رحمة تسع التائب مهما أثقلته خطاياه، لكنه لا يجعل الرحمة ذريعةً لطمأنة الإجرام وهو مصرٌّ على إجرامه.

إن التصور الناقص يريد أحد الطرفين وحده: قوم يصورون الله — تعالى عن تصورهم — كأن المغفرة تلغي المسؤولية، فيقيمون على الذنب ويقولون: الله رحيم. وآخرون يقدمون الدين بوصفه باباً للعقوبة فقط، حتى ينسى الإنسان أن الرب الذي يحاسبه هو الذي دعاه إلى التوبة قبل الحساب.

أما القرآن فيجمع القلب بين الرجاء والهيبة. يرجو فلا يقنط، ويخاف فلا يغتر. يسير إلى الله بقلب يعلم أن الرحمة أوسع من ذنبه، وأن الذنب أخطر من أن يأمن عاقبته.

﴿رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾.

نسبهم إلى ربوبيته حتى وهم مكذبون؛ فالذي خلقهم لا تزال رحمته تدعوهم. لم يغلق الباب لأنهم جادلوا، ولم يحرمهم فرصة العودة لأنهم افتروا. ما دام العمر قائماً، فالدعوة قائمة.

لكن إن أصروا على الإجرام: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾.

فلا صنم يحمي، ولا شفيع يملك استقلالاً، ولا حيلة تمنع الحكم. لقد بنوا شريعتهم الكاذبة على الخوف من آلهة لا تملك شيئاً، وغفلوا عن بأس القادر الذي لا يعجزه أحد.

حجة المشيئة التي تصنعها المعصية

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾.

حين سقطت حججهم العقلية، احتموا بالقدر: لو شاء الله ألا نشرك لما أشركنا. لقد وقع فعلنا في مشيئته، إذن هو راضٍ به.

وهذا خلط بين المشيئة الكونية والمحبة الشرعية. ما يقع في الكون لا يخرج عن مشيئة الله، لكن ليس كل ما شاء وقوعه لحكمةٍ يحبه ويرضاه. شاء وجود الاختيار والابتلاء، وأمر بالتوحيد ونهى عن الشرك، ثم منح الإنسان إرادةً يحاسب على استعمالها.

ولو كان وقوع الفعل دليلاً على رضا الله به، لما صح إنكار ظلم ولا جريمة؛ فكلها وقعت في ملكه. لكن المشركين لا يستخدمون هذه الحجة حين تُسرق

أموالهم أو تُنتهك حقوقهم؛ عندئذ يطالبون الفاعل بالمسؤولية. إنما يستدعون القدر حين يريدون إعفاء أنفسهم من التوبة.

الاحتجاج بالقدر بعد الذنب لتبرير الإصرار ليس إيماناً بالقدر؛ إنه توظيف له ضد الأمر. أما المؤمن فإذا أذنب لم يقل: شاء الله، إذن أنا بريء؛ بل يقول: ظلمت نفسي، وأستغفر الله. يرى القدر في المصائب باباً للصبر، ويرى الأمر والنهي في الأفعال باباً للمسؤولية.

(كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا).

ليست حجتهم جديدة؛ سبقتهم أمم قالت المعنى نفسه حتى ذاقت العقوبة. ولو كانت الحجة صحيحة لما عوقبوا.

(قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا).

مرة أخرى يطلب القرآن العلم. هل عندكم وحي يخبر أن الله رضي بشرككم؟ هل اطلعتم على الغيب فعرفت أن مشيئته حجة لكم على أمره؟

(إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ).

ليست معرفة، بل ظنون تُصاغ لحماية الموروث. فالإنسان إذا أحب النتيجة خفّض شروط الدليل المؤدي إليها؛ يقبل الظن حين يخدمه، ويطلب اليقين المستحيل حين يعارضه.

الحجة البالغة

(قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ).

حجة الله تبلغ الغاية التي لا يبقى بعدها عذر لمن أعرض. أرسل الرسل، وأنزل الكتب، وأقام الآيات في الكون والنفس والتاريخ، ومنح الإنسان سمعًا وبصرًا وعقلًا.

(فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ).

هو قادر على هدايتهم قهراً، لكنه لم يشأ أن يلغي الاختيار الذي يقوم عليه الابتلاء. فوجود الضلال لا يعني غياب القدرة، وإنما يعني أن الإنسان وُضع في مقام تظهر فيه حقيقة موقفه.

والحجة البالغة لا تعني أن البشر يحيطون بحكمة الله كلها، بل أن البيان الذي تتوقف عليه المسؤولية قد قام، وأن نقص علم الإنسان بتفاصيل القدر لا يمنحه حق رد الأمر الواضح.

هاتوا شهداءكم

(قُلْ هَلْ مَشْهُدَاكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا).

بعد طلب العلم يأتي طلب الشهادة: أحضروا من شهد أن الله حرم ما تزعمون. إنهم ينسبون قولاً إلى الله، فلا بد من برهان يليق بخطورة النسبة.

﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾.

قد يأتي الشهود، لكن العدد لا يصنع صدق الشهادة. يمكن لجماعة كاملة أن تتواطأ على وهم، وأن يرث الخلف شهادة السلف دون أن يسأل أحد: من أين بدأ هذا القول؟

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾.

تعود السورة إلى جذر الانحراف: الهوى، وإنكار الآخرة، وجعل الأنداد لله. ومن هذه الجذور نبتت الأحكام الزائفة. فليست قضية الأنعام بعيدة عن العقيدة؛ إنها الثمرة الاجتماعية للشرك.

تعالوا

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾.

يا لعظمة الانتقال! بعد أن قال المشركون: هذا حرام وهذا حلال بأهوائهم، جاء الوحي يقول: ﴿تَعَالَوْا﴾.

ليست دعوة إلى جدل جديد، بل إلى سماع التحريم من مصدره. وتعالوا في أصلها نداء إلى الارتفاع؛ كأن الوحي يطلب منهم أن يصعدوا من مستنقع الخرافة إلى وضوح التكليف، ومن شريعة الهوى إلى ميثاق الكرامة.

لقد حرموا أنعامًا وأطعمة، بينما تبدأ محرمات الله بأصل يحرر الوجود كله: ﴿أَلَّا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾.

هذا هو الأساس. قبل الطعام واللباس والتفاصيل يقف التوحيد؛ لأن القلب إذا استقام لرب واحد استقامت منه بقية الموازين. أما إذا توزع بين الأرباب، استطاع كل رب مزعوم أن يقطع من الإنسان جزءاً من حريته وضميره.

(شَيْئاً) نكرة في سياق النهي، فتعم كل ما يتخذ شريكاً: حجرًا، أو بشرًا، أو هوى، أو سلطةً تمنح نفسها خصائص الربوبية.

التوحيد لا يحرر الإنسان من السجود للصنم وحده، بل من أن يجعل شيئاً في الكون ندًا لله في العبادة والطاعة المطلقة والرجاء الذي لا يكون إلا له.

وبالوالدين إحساناً

(وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا).

ينتقل الميثاق من حق الله إلى حق الوالدين. فالتوحيد الصحيح لا يعزل الإنسان في علاقة روحية خاصة، بل يصنع فيه وفاءً لأقرب الناس إليه.

لم يقل: لا تسيئوا فقط، بل أمر بالإحسان. والعدل أن تعطي الحق، أما الإحسان فيتجاوز الحساب الدقيق إلى البذل والرحمة واحتمال الضعف.

الوالدان هما باب الإنسان الأول إلى الحياة؛ حملاه قبل أن يحمل نفسه، ورعاياه حين لم يكن يملك رد الجميل. ومن قسوة القلب أن يشتد ساعد المرء ثم ينسى اليد التي حفظت ضعفه.

لكن الإحسان لا يعني الطاعة في الشرك أو الظلم؛ إبراهيم خاطب أباه بالحق ولم يتبع ضلاله. وهكذا يجمع الوحي بين حفظ المبدأ وحفظ الأدب: لا يبيع دينه لإرضائهما، ولا يجعل اختلافهما معه عذرًا للعقوق.

لا تقتلوا أولادكم من إملاق

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾.

كان المشركون يقتلون أبناءهم خوفاً من الفقر أو تحت ضغط الخرافة. فجاء التوحيد ليقف بين الطفل والسكين.

﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾.

الفقر واقع مؤلم، لكن الخوف منه لا يمنح الإنسان حق قتل الحياة. فالرزق ليس رقماً ثابتاً يجب أن يوزع على أفواه موجودة؛ كل نفس تأتي وقد كتب الله رزقها، وعلى المجتمع أن يقيم العدل ويأخذ بالأسباب.

والآية لا تدعو إلى ترك العمل بحجة الرزق، بل تحرر النفس من أن تجعل ضيق الموارد مبرراً للجريمة. فالذي يطعم الآباء قادر على أن يطعم الأبناء، والعمل نفسه من أبواب رزقه.

وتمتد دلالة الآية إلى كل مجتمع يجعل الفقراء عبئاً زائداً لا بشراً لهم حق الحياة والكرامة، فيعاقب الضعيف على فشل نظام لم يصنعه.

لا تقربوا الفواحش

﴿وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ﴾.

لم يقل: لا تفعلوا فقط، بل: ﴿لَا تَقْرُبُوا﴾.

لأن بعض المعاصي لها مسافة جذب؛ من دخل مقدماتها ضعف أمام نهايتها. والحكمة ليست أن تختبر قدرتك على الوقوف عند حافة الهاوية، بل أن تحفظ بينك وبينها طريقاً آمناً.

والفواحش منها ما يظهر في السلوك، ومنها ما يبطن في القلب والخيال والسر. قد يصنع المجتمع واجهةً من العفة، بينما يترك الخفاء بلا رقابة. لكن الله لا تخفى عليه الغرف المغلقة ولا النيات المستترة.

إن الطهارة القرآنية لا تقيم شرطاً على الأجساد فقط؛ تبني في الداخل ضميراً يحرس الإنسان حين يكون وحده. فمن لم يترك المعصية إلا لعجزه أو خوفه من الناس لم تتحول العفة بعد إلى خلق.

النفس التي حرم الله

﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾.

الحياة حرم أقامه الله حول الإنسان. لا تصبح الدماء مباحةً بالغضب أو العصبية أو اختلاف الهوية. ومن أراد أن ينزع عن نفس حرمتها فعليه ببرهان الحق الذي أقامه الشرع، لا بدعوى تصنعها الأهواء.

كم يبدأ القتل قبل السلاح! يبدأ حين تُنَزَّعَ عن المخالف إنسانيته في اللغة، ويُختزل في لقب مكروه، ثم يتعود المجتمع سماع إهائته حتى لا يعود يتألم لدمه. الكلمة قد تكون أول الممر إلى المقبرة.

والتوحيد يحرس النفس لأن خالقها هو الذي منحها حرمتها. فلا قبيلة تملكها، ولا حاكم يستبيحها لمجرد مخالفتها، ولا جماعة تجعل الدم وسيلةً لتثبيت نفوذها.

﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

هذه الوصايا ليست أوامر تناقض العقل، بل تعيده إلى رشده. فالشرك وقتل الأبناء والفواحش وسفك الدم انحدار عن العقل مهما أحاط نفسه بالتبريرات.

مال اليتيم: امتحان القوة أمام الضعف

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾.

يخص القرآن اليتيم لأن ضعفه يغري النفوس المريضة. لا أب يقف وراءه، وقد لا يستطيع أن يدافع عن ماله؛ وهنا يظهر المعدن الحقيقي للأخلاق.

ليس الشريف من يعدل مع القوي لأنه يخشاه، بل من يحفظ حق الضعيف حين يقدر على أخذه ولا يراه أحد.

﴿إِلَّا بِالتِّي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

لم يكتف بمنع السرقة؛ أوجب إدارة المال بالطريقة الأحسن التي تحفظه وتنميها. فالأمانة ليست مجرد ألا تأخذ، بل أن ترعى ما وُضع في يدك بما يحقق مصلحة صاحبه.

وكم من قيادة أو مؤسسة عاملت أموال الضعفاء كأنها غنيمة، ثم سمت الاستيلاء إدارة! إن الآية تقيم ميزانًا صارمًا: المال لصاحبه، والوصي خادم للأمانة لا مالك لها.

أوفوا الكيل والميزان

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾.

يدخل التوحيد إلى السوق. فلا قيمة لعقيدة يعلنها التاجر في المسجد ثم يغش بها الناس في متجره. الميزان موضع عبادة؛ لأن الله يرى اليد حين تنقص، ويعلم ما تخفيه الأرقام المصنوعة.

والكيل والميزان أوسع من أدوات البيع؛ كل علاقة فيها حقوق قابلة للتقدير تحتاج إلى قسط. قد ينقص الإنسان قيمة عمل غيره كما ينقص البائع الميزان، وقد يبخر مفكرًا جهده، أو عاملاً أجره، أو إنساناً فضله لأنه لا يحبه.

العدل أن تزن العمل لا صاحبه، والحقيقة لا انتماءه.

﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

جاءت الرحمة داخل الأمر بالقسط. فالدقة التامة التي لا يدخلها خطأ غير مقصود قد تتجاوز طاقة البشر؛ المطلوب بذل الوسع والصدق، لا الوقوع تحت وسواس يستحيل معه التعامل.

الشريعة جادة، لكنها ليست قاسية. تطلب العدل، وتعرف حدود القدرة البشرية. فالخطأ العابر بعد الاجتهاد ليس كالغش المتعمد الذي يبتكر الحيل لإنقاص الحقوق.

وإذا قلتم فاعدلوا

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾.

القول مسؤولية: شهادة، وحكم، ورواية، وتقييم. وقد يظن الإنسان أن الظلم لا يقع إلا باليد، بينما تستطيع كلمة منحازة أن تهدم سمعةً، وتسلب حقًا، وتقلب الجاني ضحيةً والضحية متهمًا.

﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾.

هنا امتحان العدل الحقيقي. أن تقول الحق حين يكون في مصلحة من تحب أمر يسير؛ لكن العدل يظهر حين يقف الحق في الجهة الأخرى.

العصبية لا تبدأ دائمًا بيبغض الآخرين، بل قد تبدأ بحب أعمى لجماعتك يمنعك من رؤية خطئها. تبرر لها ما تدينه في خصمها، وتطالب الناس بفهم ظروفها بينما لا تفهم ظروف غيرها.

لكن التوحيد يجعل الولاء للحق أعلى من ولاء الدم والتنظيم والحزب. لا يعني قطع روابط المحبة، بل منعها من شراء الضمير.

وبعهد الله أوفوا

﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾.

العهد ليس كلمة عابرة؛ إنه بناء من الثقة يحمل العلاقات والمجتمعات. وإذا انهار الوفاء، عاش الناس في قلق دائم؛ كل اتفاق يحتاج إلى حارس، وكل أمانة يطاردها الشك.

وعهد الله يشمل ما عاهد الإنسان ربّه عليه من الإيمان والطاعة، وما دخل فيه من موثيق مشروعة مع الناس؛ فالوفاء بالعباد داخل في الوفاء لله.

ليس التدين أن تكثر العهود اللفظية، بل أن تتحول كلمتك إلى موضع أمان. وقد يكون من أشد الخيانة أن تُستعمل الأخوة الدينية لاستجلاب الثقة، ثم يُؤكل حق صاحبها تحت غطاء الأخوة.

﴿ذَلِكَُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

العقل أدرك أصل هذه المعاني، والوحي يوقظ الذاكرة الأخلاقية حتى لا تطمسها المصلحة.

صراطى مستقيماً

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ).

بعد الوصايا تأتي صورة الطريق. كل حكم منها علامة على الصراط: التوحيد، والبر، وحفظ الحياة، والعفة، والعدل، والأمانة، والوفاء.

(هَذَا صِرَاطِي).

أضافه الله إلى نفسه تشريعاً وبياناً لمصدره. وهو مفرد، بينما السبل جمع؛ لأن الحق يجمع، والأهواء تتشعب. لكل شهوة طريق، ولكل عصبية طريق، ولكل خوف طريق، فإذا اتبعها الإنسان تفرقت به عن سبيل الله.

التفرق يبدأ في الداخل قبل أن يظهر في المجتمع. قلبٌ يريد رضا الله ورضا الهوى ورضا الناس جميعاً، ثم يكتشف أن الجهات تتعارض، فيتمزق بينها. أما الصراط المستقيم فيوحد المرجعية، فتتنظم تحتها بقية العلاقات.

(ذَلِكَمُ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ).

بدأت الغايات بالعقل، ثم التذكر، ثم التقوى. فالعقل يدرك، والذكر يحفظ الإدراك من الغفلة، والتقوى تحوله إلى حارس في السلوك.

كتاب موسى تمامًا على الذي أحسن

﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾.

ترتبط الوصايا بموكب الوحي السابق. كتاب موسى جاء تمامًا وبيانًا وهدى ورحمة. فالرسالات لا تختلف في أصول التوحيد والعدل، وإن اختلفت بعض شرائعها التفصيلية.

لاحظ اجتماع الهدى والرحمة مرة أخرى. أحكام الله لا تسير بالإنسان إلى السجن، بل إلى نجاته. الحدود التي تبدو تقييدًا للهوى هي التي تحمي النفس من أن تصبح أسيرته.

والغاية: الإيمان بقاء الله. فحين يغيب اللقاء تتحول الأحكام إلى أثقال أو عادات، أما حين يحضر في الوعي تصبح جسورًا إلى يوم لا ينفع فيه إلا القلب السليم والعمل الصالح.

وهذا كتاب أنزلناه مبارك

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

تعود البركة، ويعود الأمر بالاتباع. ليس المطلوب الاحتفاء بجمال القرآن مع ترك قيادته، ولا تعليقه في البيوت ثم إخراج موازينه من الحياة.

(فَاتَّبِعُوهُ).

البركة متصلة بالاتباع. قد يقرأ الإنسان القرآن طلباً للسكينة، وهو حق، لكن القرآن يريد أيضاً أن يغيّر طريقته في الحكم والإنفاق والوفاء والتعامل مع الضعفاء. لا يكتمل أثره حين يهدى حزنك فقط؛ يكتمل حين يهذب قوتك.

(وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ).

الرحمة ليست دعوى منفصلة عن الطريق؛ لها أبواب من التقوى والاتباع. لا يشتري العمل رحمة الله ثمنًا مكافئًا، ففضله أوسع، لكنه جعل للطاعة أسبابًا توصل إلى رضاه.

سقط عذر: لم ينزل الكتاب علينا

(أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ).

لا يستطيع العرب بعد نزول القرآن أن يقولوا: الكتب نزلت على اليهود والنصارى، ولم يكن لنا وصول صحيح إلى دراستها. لقد جاءهم كتاب بلسانهم، يخاطب تجربتهم وقيم عليهم الحجة.

(أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ).

كم يسهل على الإنسان أن يتخيل فضيلته في امتحان لم يدخله! يقول: لو كنت في زمان كذا لفعلت، ولو جاءني الحق بهذه الصورة لاتبعته. ثم يأتيه الامتحان الحقيقي فلا يفعل ما كان يزعم.

لقد تمنوا كتابًا، فجاءهم: ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾.

سقط العذر، وبدأت المسؤولية. فالنعمة التي يطلبها الإنسان قد تصبح حجة عليه إذا جاءته ثم لم يؤد حقها.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾.

جمعوا بين التكذيب والإعراض: رفضوا الحقيقة، ثم صرفوا غيرهم عنها. فكان الجزاء متصلًا بالفعل الذي أصرروا عليه.

الإيمان الذي يأتي متأخرًا

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾.

نؤمن بما أخبر الله عن إتيانه على الوجه اللائق بجلاله، من غير تشبيه ولا تكييف ولا تعطيل؛ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾. والآية تهدد من يؤجل الإيمان حتى تنتهي مهلة الغيب وتظهر العلامات الفاصلة.

﴿يَوْمَ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا﴾.

هناك لحظة يُغلق فيها باب الاختيار. والإيمان الذي يأتي بعد أن تصبح الحقيقة مشاهدةً قاهرةً لا يحمل قيمة الإيمان بالغيب.

وتلفت الآية إلى معنى آخر: ليس المطلوب أن يوجد الإيمان اسمًا فقط، بل أن يكسب الإنسان في إيمانه خيرًا. فالعقيدة التي لا تثمر عملًا تبقى مهددة بأن تتحول إلى دعوى ساكنة.

(قُلِ انْتَبِظُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ).

تهديد حاسم لمن بدد فرص الهداية منتظرًا العلامة التي لا ينفع الإيمان بعدها.

الذين فرّقوا دينهم

(إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا لَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ).

الدين جاء ليجمع الناس على عبادة الله، لكن الأهواء قد تحول الانتماء إليه إلى شيع متنازعة. لا يكون الخلاف العلمي المنضبط كله مذمومًا؛ فقد يقع بين أهل الإيمان مع بقاء الأخوة. المذموم أن يُمزق أصل الدين، وأن تتحول الجماعة إلى معبود خفي يُوالى الحق لأجلها ويُرفض لأجلها.

حين يصير الاسم أهم من الوحي، يدافع المرء عن خطأ طائفته لأنه خطؤها، ويرفض صواب غيرها لأنه جاء من خارجها. هنا لا تعود الجماعة وسيلةً لخدمة الدين؛ يصير الدين وسيلةً لخدمة الجماعة.

(لَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ).

براءة نبوية من التفرق الذي يحول الرسالة الواحدة إلى عصبيات. فالرسول ﷺ لا يُختزل في راية صغيرة يتخاصم الناس حول ملكيتها؛ رسالته أوسع من انغلاق الطوائف.

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ﴾.

لا يعني ذلك ترك بيان الحق، بل رد السرائر والحكم الأخير إلى الله. فهو يعلم من طلب الحق فأخطأ، ومن عرفه ثم فرق الدين طلباً للزعامه.

الحسنة بعشر أمثالها

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

هذا هو ميزان الرحمة والعدل: الحسنة تضاعف عشرًا على الأقل، والسيئة لا تضاعف في أصل الجزاء، بل يُجزى صاحبها بمثلها.

إن الله يفتح للخير أبواب النمو، ويحاصر الشر في حد العدل. وما بين المضاعفة وعدم الزيادة يظهر فضل الله على عباده.

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾.

لم يقل: من عرفها أو تكلم عنها؛ لا بد أن يجيء بها عملاً محفوظاً. وكذلك السيئة يأتي بها صاحبها إلى الموقف؛ فالأعمال لا تتبخر، بل تصاحب الإنسان إلى آخر الطريق.

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

لن تنقص حسنة، ولن تضاف سيئة لم يعملوها، ولن يحمل إنسان جرم غيره. في عالم تضيق فيه الحقوق بسبب ضعف الشاهد أو قوة الخصم، تمنح هذه الجملة المظلوم يقيناً بأن محكمة كاملة تنتظره.

ملة إبراهيم حنيفاً

(قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قَبِيماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ).

تعود السورة إلى إبراهيم الذي أسقط الكوكب والقمر والشمس من مقام الربوبية، ووجه وجهه لفاطر السماوات والأرض.

(هَدَانِي رَبِّي).

الهداية من الله، لا اختراعاً بشرياً. والدين (قِيَمًا): مستقيماً مقيماً لمصالح الإنسان، لا اعوجاج فيه ولا تناقض بين عقيدته وأخلاقه.

إنه ملة إبراهيم حنيفاً؛ ميل عن كل شرك إلى الله وحده. فليست الوثنية الجديدة في حقيقتها مختلفة عن القديمة، وإن تغيرت أشكالها. كل ما ينتزع من الله حقه ثم يمنح لمخلوق هو صنم يحتاج إلى لحظة إبراهيمية تكشف أفوله.

الصلاة والنسك والمحيا والممات

(قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ).

هنا تصل السورة إلى ذروتها. بدأت بالحمد لله خالق السماوات والأرض، ثم سارت في هدم الشرك، وكشف الافتراء، وتحرير الخوف، وتصحيح التشريع، حتى تجمع الحياة كلها في قبضة التوحيد.

﴿صَلَاتِي﴾: عبادتي اليومية التي تعيد قلبي إلى قبلته.

﴿وَنُسُكِي﴾: ذبحي وسائر تعبدي.

﴿وَمَحْيَايَ﴾: عملي وعلاقاتي وموقفي واختياراتي.

﴿وَمَمَاتِي﴾: النهاية التي ألقاه بها وما أتركه بعدي.

كلها لله.

لا يقطع الإنسان ساعة للصلاة ثم يترك بقية يومه لأرباب المصلحة والهوى. لا يصح أن يكون محرابه لله، وسوقه للغش، ولسانه للعصبية، وولأؤه لمن يدفع أكثر. فالتوحيد يرفض تجزئة الإنسان.

﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾.

الحياة لله ليست انطفاءً لشخصية الإنسان، بل اكتمالاً لها؛ لأنه يتحرر من اضطراره إلى ارتداء وجه لكل جمهور. يموت لله أيضاً: ثابتاً على عهده، راجياً لقاءه، لا يبيع آخرته ليؤجل المآ أو يشتري رضا مخلوق.

﴿لَا شَرِيكَ لَهُ﴾.

لا شريك في الصلاة، ولا في النسك، ولا في معنى الحياة، ولا في غاية الموت. إن ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ لا تقف بعد شعيرة واحدة؛ تسري في الوجود كله.

أَغِيرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا؟

(قُلْ أَغْيَرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ).

بعد أن وقف إبراهيم أمام الآلهة الآفلة، وبعد أن ظهرت سخافة التشريعات المصنوعة، يأتي السؤال الأخير: أطلب ربًّا غير الله، وكل ما سواه مربوب له؟

من أتخذة ربًّا من دون الله مملوك لله. ومن أخاف منه محتاج إلى حفظ الله. ومن أرجوه لا يملك خزائن ما أرجو. فكيف أترك رب كل شيء لأتعلق بشيء؟

لا تزر وزرًا أخرى

(وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى).

هذه قاعدة التحرير الأخلاقي: كل نفس مسؤولة عن كسبها، ولا تحمل نفس ذنب أخرى. لا يواخذ ابن بجريمة أبيه، ولا قبيلة بذنب فرد منها، ولا إنسان لمجرد انتسابه إلى جماعة أخطأ بعض أفرادها.

إن العقوبات الجماعية والثرات الموروثة تنتمي إلى منطق الجاهلية الذي يذيب الفرد في النسب. أما القرآن فيعيد لكل إنسان شخصيته الأخلاقية المستقلة.

ولا يستطيع المذنب أن يلقي وزره على قائده أو بيئته أو الشيطان. قد تكون هذه عوامل ضغط وإغواء، لكنها لا تلغي أصل الاختيار. كل واحد يعود إلى الله حاملاً قراره.

(ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ).

الاختلاف الذي ملأ الدنيا صخبًا سيُعرض على علم كامل. كم من خصومة بدت بلا نهاية لأن كل طرف امتلاك روايته! لكن المرجع إلى من يعلم الواقعة والنية والسر وما أخفته اللغة.

خلائف الأرض

(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ).

لم يجعلنا ملاكًا دائمين للأرض، بل خلائف؛ يخلف بعضنا بعضًا. نأتي بعد أجيال كانت تظن الأرض لها، ثم نغادر لتسلمها أيدينا إلى جيل لم يولد بعد.

فالاخلفة ليست امتيازًا بلا تكليف؛ إنها أمانة مؤقتة. الإنسان مسؤول عن الأرض التي تسلمها: هل أصلحها أم أفسدها؟ وهل حفظ مواردها لمن بعده أم استنزفها كأنه آخر سكانها؟

(وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ).

تفاوت الناس في المال والعلم والقوة والمكانة، لكن هذا التفاوت ليس شهادة بأن الأعلى أكرم عند الله؛ إنه مادة امتحان:

(لِّيَبْلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ).

الغني ممتحن في ماله، والعالم في علمه، والقائد في سلطانه، والقوي في قدرته على الضعيف. كل نعمة تحمل سؤالها معها.

قد يكون الفقير أشد ابتلاءً من جهة الحرمان، لكن الغني أشد ابتلاءً من جهة الأمانة. وقد يظن صاحب السلطة أن ارتفاعه فوق الناس دليل فضل، بينما هو في الحقيقة واقف على منصة حساب أعلى.

ليست القضية: كم أعطاك الله؟ بل: ماذا صنعت بما أعطاك؟

من مُنح عقلاً فليخدم به الحقيقة لا غروره.

ومن مُنح قلمًا فليفتح به نافذةً للوعي، لا بابًا إلى التضليل.

ومن مُنح قيادةً فليحفظ كرامة من انتمنوه، لا أن يجعل حاجتهم سلماً إلى حظ نفسه.

ومن مُنح مالاً فليعلم أن في حصاده حقاً لمحتاج.

التفاوت لا يبرر الاستعلاء؛ يضاعف المسؤولية.

سريع العقاب وغفور رحيم

﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

بهذه الثنائية تختتم سورة الأنعام رحلتها. سريع العقاب لمن أصر بعد البيان، وغفور رحيم لمن عاد. لا يملك المجرم أن يتكئ على الرحمة ليأمن، ولا يملك التائب أن يجعل العقاب جداراً بينه وبين الرجاء.

جاءت المغفرة والرحمة مؤكدتين: ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. وكأن السورة، بعد كل ما عرضته من شرك وافتراء وجحود وقتل وتحريم، لا تريد أن تترك الإنسان أمام ماضيه، بل أمام ربه.

يمكنك أن تعود.

مهما تفرقت بك السبل، فالصراط ما زال قائماً.
ومهما عبد قلبك من أوهام، فباب التوحيد لم يُغلق.
ومهما أخفيت من ذنب، فعلم الله الذي أحاط به هو علم رب كتب على نفسه
الرحمة.

لكن العودة لا تكون بعبارة مريحة تترك الحياة كما هي؛ إنها أن تجمع شتاتك
كله وتقول بصدق: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.
هنا يسترد الإنسان وحدته. فلا يبقى جزء منه لله وجزء للهوى، ولا وجه
للمحراب ووجه للسوق، ولا عقيدة توحيدية فوق اللسان وحياة وثنية في
الخفاء.

لقد بدأت سورة الأنعام بالكون: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾.
وانتهت بالإنسان مستخلفاً في الأرض، ممتحناً فيما آتاه الله. وبين البداية
والنهاية أعادت بناء الصلة: الخالق واحد، والمالك واحد، والولي واحد،
والحكم له، والرزق منه، والمصير إليه.

وما التوحيد في حقيقته إلا أن يصبح القلب كما أرادته هذه السورة: سماءً
داخلية لا تدور فيها آلهة متناثرة، بل تتجه نجومها كلها إلى قبلة واحدة.

خاتمة الكتاب

حين يستردُّ التوحيدُ قلبَ الإنسان

تغلق سورة الأنعام آياتها، لكن أسئلتها لا تغادر القلب. فما كانت رحلتها جدلاً مع وثنيةٍ ماتت، ولا سرداً لأصنام تهشمت حجارته ثم انتهى خطرهما؛ كانت بحثاً عميقاً عن الموضع الذي تُصنع فيه الأصنام قبل أن تقام في المعابد: داخل الإنسان.

فالحجر لا يصير إلهاً بقوته، بل بالمعنى الذي يمنحه القلب له. والبشر لا يتحولون إلى أرباب لأنهم امتلكوا خصائص الربوبية، بل لأن الخوف يرفعهم في الوجدان فوق أحجامهم، أو لأن الطمع يمنحهم من الطاعة ما لا يستحقون، أو لأن العادة تحيطهم بهالة تجعل مساءلتهم شبيهةً بالخروج على المقدس.

لهذا بدأت السورة بالله قبل أن تبدأ بالأصنام: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾.

إنها تملأ المشهد بالخالق حتى يضيق عن الشركاء. ترفع بصر الإنسان إلى السماوات، وتبسط تحته الأرض، ثم تضع أمامه الظلمات والنور، وتسأله في صمت: أيُّ موضع بقي لآلهتكم في هذا الملك؟

كان ينبغي أن تكفي السماء لتوحيد القلب، لكن الإنسان يستطيع أن يعيش تحتها منشغلاً بسقف صنعه لنفسه. وكان ينبغي أن تكفي الأرض دليلاً، لكنه يمشي فوق الآيات كما يمشي فوق التراب؛ تطوُّها قدماء ولا تبلغ بصيرته.

المشكلة لم تكن فقر الوجود إلى الدلالة، بل فقر القلب إلى الصدق.

الكون لا يعاني أزمة في البيان

كل شيء في سورة الأنعام يقود إلى الله: الحبة حين تنشق، والنواة حين تخرج سرها الأخضر، والصباح حين يفلق جدار الليل، والنجوم وهي تهدي المسافرين في ظلمات البر والبحر، والماء حين ينزل واحدًا ثم يخرج من الأرض ثمرات مختلفًا أكلها.

الورقة التي تسقط ولا يراها أحد لا تسقط خارج علم الله. والحبة المدفونة في ظلمات الأرض لا تضيع في العتمة. والنفس التي تنام كل ليلة لا تضمن عودتها إلا بإذن من يتوفاها ثم يبعثها.

ليس الكون صامتًا؛ لكن الألفة تخفض صوته في داخلنا. نرى الصباح كثيرًا حتى ننسى أن الضوء في كل مرة يخرج من قبضة الظلام كأنه أول صباح في الوجود. ونأكل الثمرة حتى يحجب الطعم عن بصيرتنا هندسة الخلق التي حملتها إلينا.

جاء القرآن لا ليضيف إلى الكون دلالة ليست فيه، بل ليعيد إلى العين قدرتها على القراءة. ينفذ غبار العادة عن الأشياء، فتعود الورقة آية، والحبة آية، والليل آية، وجسد الإنسان نفسه آية.

وكلما اتسع علم الإنسان بالخلق، كان ينبغي أن يتسع تواضعه للخالق. أما أن يكتشف مزيدًا من تفاصيل الصنعة ثم يستخدمها ستارًا لنسيان الصانع، فذلك عقل جمع المعلومات وأضاع وجهتها.

ليست الآفة في غياب البرهان

كشفت السورة نوعاً من الكفر لا يعاني نقص الأدلة، بل يهرب من نتائجها. ولو نُزل على أصحابه كتاب في قرطاس فلمسوه بأيديهم، لقالوا: سحر مبين. ولو نزلت الملائكة، وكلمهم الموتى، وحُشر عليهم كل شيء مواجهةً، لاستطاعوا أن يصنعوا للإنكار اسماً آخر.

فالقلب لا يؤمن قسراً بكثرة ما يرى؛ قد يرى ثم يؤول، ويلمس ثم ينكر، ويسمع ثم يجعل في أذنه من الهوى وقرّاً يمنعه من الفقه.

إن بعض الناس لا يسألون عن دليل جديد ليصلوا إلى الحقيقة، بل ليؤجلوا اللحظة التي يضطرون فيها إلى تغيير حياتهم. يرفعون شرطاً، فإذا تحقق رفعوا وراءه شرطاً آخر؛ لأن القضية لم تكن في البرهان، بل في الثمن الذي يطلبه الإيمان.

فالحقيقة حين تدخل القلب لا تجلس فيه كقطعة أثاث جديدة؛ تعيد ترتيب البيت كله. تسأل الإنسان عن مصادر ماله، وعن ولاءاته، وعن خوفه، وعن حقوق من ظلمهم، وعن الأصنام التي لا يسميها أصناماً. ولهذا قد يفضل بقاء السؤال مفتوحاً على أن يسمح للجواب بأن يمس امتيازاته.

ما أكثر من يقول: لم أقتنع، وهو يعني في أعماقه: لم أستعد بعد لأن أدفع ثمن الاقتناع.

إبراهيم: اليقين الذي لا يخاف الأفول

في قلب السورة وقف إبراهيم عليه السلام بين قومه، لا يحمل قوة ظاهرة تحميه، لكنه يحمل بصيرة تكفي لهدم عالم كامل من الوهم.

مر الكوكب فأفل.

وبزغ القمر ثم غاب.

وارتفعت الشمس بكل هيبتها، ثم دخلت في قانون الأفول.

ومن بين المشاهد خرج القانون الإبراهيمي الكبير: (لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ).

ليست هذه كلمة في نقد عبادة الأجرام وحدها؛ إنها تحرير لقلب الإنسان من أن يمنح نفسه لما يزول. كل شيء يأفل لا يصلح أن يكون المقصد الأخير. القوة تأفل، والشهرة تأفل، والجمال يأفل، والسلطان يأفل، والبشر الذين نحبهم يرحلون.

لا يعني ذلك ألا يحب الإنسان شيئاً من خلق الله؛ بل أن يحبهم في حدود كونهم مخلوقين، فلا يطلب من الضعيف حمايةً مطلقة، ولا من الزائل بقاءً، ولا من المحتاج غنىً يملأ فراغ روحه.

التوحيد لا يقتل العاطفة، بل ينقذها من المبالغة التي تحول الحب إلى عبودية، ثم تحول الفقد إلى انهيار كامل. حين يكون الله هو الوجهة، تبقى سائر المحاب في مداراتها الصحيحة: جميلة، لكن غير معبودة؛ عزيزة، لكن لا تزاحم حق الله.

وحين اكتمل المشهد قال إبراهيم: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا﴾.

التوحيد توجيه للوجه، أي جمع للإنسان كله في جهة واحدة. والشرك تمزق؛ كل قوة تطلب منه وجهًا، وكل مصلحة تمنحه شخصيةً، حتى يعود غريبًا عن نفسه.

الشرك الذي لا يحتاج إلى صنم

لم تحصر سورة الأنعام الشرك في شعائر العبادة؛ كشفت امتداده إلى الولاية والخوف والتشريع والاقتصاد والعلاقات الاجتماعية.

قد يؤمن الإنسان أن الله خالق، ثم يتخذ غيره وليًا تتعلق به طمأنينته تعلقًا لا يليق إلا بالله. وقد يرفض عبادة الحجر، ثم يمنح هواه حق تحليل الحرام وتحريم الحلال. وقد يهتف بالتوحيد، ثم يتعامل مع قوة بشرية كأن رزقه ومصيره في يدها وحدها.

لهذا سألت السورة: ﴿قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ اتَّخَذُ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؟

فالولي هو من يسلم الإنسان إليه ثقته ونصرته ووجهته. وإذا تعلق القلب بمخلوق تعلقًا مطلقًا، أصبح ذلك المخلوق صنمًا ولو لم يُنحت له تمثال.

كم من إنسان لا يسجد إلا لله بجهته، لكن قلبه ينحني كل يوم أمام رضا الناس! يقول ما لا يؤمن به خوفًا من غضبهم، ويسكت عن الحق ليحفظ موضعه عندهم، ويقيس نفسه بالصورة التي رسموها له.

التوحيد أن تسقط هذه المحاكم الصغيرة من الداخل، وأن تعرف أن الحكم الأخير لله. لا يعني ذلك احتقار الناس ولا إهمال حقوقهم، بل ألا تمنحهم مفاتيح قيمتك ومصيرك.

من عرف أن الله يطعم ولا يُطعم، وأنه يكشف الضر، وأنه القاهر فوق عباده، وأن مفاتيح الغيب عنده، تحرر من إذلال نفسه عند أبواب المحتاجين مثله.

يشكر السبب، لكنه لا يعبد.

ويحترم القوي، لكنه لا يمنحه حق إذلال ضميره.

ويأخذ بالأسباب، لكنه يعلم أن السبب نافذة، وليس هو الذي يصنع الشمس.

حين يختبئ الهوى داخل الدين

من أخطر ما كشفتته السورة أن الشرك يستطيع أن يرتدي ثوب الشريعة. لقد اخترع المشركون أنظمةً للأنعام والحرث، ووزعوا الأنصبة بين الله وشركائهم، وحرموا ظهور بعض الأنعام وبطنون بعضها، وجعلوا للذكور ما حرّموا على النساء، ثم نسبوا ذلك كله إلى الله.

لم يكتف الهوى بأن يكون معصية؛ أراد أن يصير دينًا.

وهنا يبلغ الانحراف ذروته: أن يفعل الإنسان ما يحب، ثم يستعير اسم الله لحماية فعله من المراجعة. تصبح المصلحة حكمًا، والعادة شريعة، وامتياز الأقوياء قدرًا مقدسًا، ثم يُتهم من يسأل عن الدليل بأنه يعتدي على الدين.

ولهذا تكرر في السورة السؤال:

أين العلم؟

ومن شهد أن الله حرم هذا؟

وهل كنتم حاضرين إذ وصاكم الله به؟

إن نسبة الحكم إلى الله ليست مساحةً للظن المنفلت. فحين يقول الإنسان: هذا حكم الله، فإنه لا يعبر عن رأي شخصي قابل للأخذ والرد؛ بل يضع أمام الناس سلطة المقدس. فإن كان كاذبًا، فقد جمع بين الافتراء على الله واستعباد الناس باسم الله.

وما تزال هذه الآفة قادرةً على العودة في كل عصر: حين تُنتزع نصوص لتبرير ظلم، أو تُصنع أحكام لحراسة امتيازات اجتماعية، أو يُطلب من الضعفاء الصبر بينما يُعفى الأقوياء من العدل، أو يُحوّل الولاء لجماعة إلى جزء من الولاء للدين.

ليس كل ما يُقال بلغة دينية صادرًا عن روح الوحي. فقد يكون القول مزخرفًا، لكنه يحمل في داخله هوىً يبحث عن محراب.

التوحيد الذي ينزل إلى السوق

لم تترك سورة الأنعام التوحيد معلقًا فوق الحياة. أنزلته إلى الطعام، والحصاد، والميزان، ومال اليتيم، وشهادة القريب، وحرمة الدم.

بعد أن قالت: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾

قالت: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾،
 ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ﴾،
 ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ﴾،
 ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾،
 ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾،
 ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾،
 ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾،
 ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾.

كأن السورة تقول: برهان توحيدك ليس فقط أن تجيد الحديث عن الله، بل أن يتغير سلوكك مع خلقه.

فالذي يوحد الله ثم يسرق مال اليتيم لم يفهم بعد أثر التوحيد في الأمانة. والذي يطيل السجود ثم ينقص الميزان يعيش انقسامًا بين محرابه وسوقه. والذي ينصر جماعته بالكذب ثم يتحدث عن الولاء لله جعل العصبية شريكًا في ميزانه.

إن العدل صورة التوحيد في العلاقات؛ لأنه يضع فوق الأهواء ميزانًا واحدًا. والمشارك أخلاقيًا هو من يملك لكل شخص ميزانًا: يبرر للصديق ما يجرمه عند الخصم، ويطالب بحقه كاملاً ثم يستهين بحق غيره.

أما الموجد فيعرف أن الله واحد، ولذلك يجب أن يكون ميزان الحق واحدًا.

كرامة الضعيف امتحانُ صدق المجتمع

حين طلب المتكبرون إبعاد الفقراء عن مجلس النبي ﷺ، جاء الأمر: (وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ).

إنها لحظة فارقة في بناء المجتمع المؤمن. فهل يُعاد ترتيب الناس وفق طبقات الجاهلية، أم وفق قيمة القلب عند الله؟

لم يكن أولئك الفقراء يملكون ما يفتح لهم مجالس الكبراء، لكنهم كانوا يملكون إرادة صافية تتجه إلى الله. وحين تستقيم الإرادة يرتفع الإنسان، ولو خلت يده من المال.

التوحيد يهدم الطبقة من أصلها؛ لأن الجميع يقفون عبيداً أمام رب واحد. لا يختار أحد أسرته ولا لونه ولا موضع مولده، فلا يحق له أن يحول ما لم يصنعه إلى منصةٍ يحتقر منها الآخرين.

ولهذا صار مال اليتيم موضع وصية، وصار العدل في الكيل عبادةً، وصارت شهادة القريب امتحاناً، وصار حق الفقير حاضراً يوم الحصاد. إن صدق المجتمع لا يُقاس بما يقوله عن الكرامة، بل بما يفعله حين تصبح كرامة الضعيف عبئاً على مصالح القوي.

من السهل احترام من يستطيع رد الإهانة.
لكن الأخلاق تظهر أمام من لا يملك الانتقام.

أخلاق الصراع

لم تكتف السورة بتقرير بطلان الشرك، بل علمت المؤمن كيف يواجهه: (وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ).

يا لهذا السمو! العقيدة الباطلة لا تمنحك حق استعمال كل وسيلة في مواجهتها. تستطيع أن تفندها، وتكشف تناقضها، وتعلن براءتك منها، لكنك لا تحول الدعوة إلى مسابقة في الإهانة تفضي إلى الإساءة إلى الله.

إن الحق لا يحتاج إلى بذاءة تحرسه؛ حجته أشرف من أن يحملها لسان فقد أخلاقه. وقد يربح الإنسان جولةً من السخرية، لكنه يغلق قلباً كان يمكن أن يفتح بالحكمة.

ليست الأخلاق زينةً تضاف إلى الدعوة بعد اكتمالها؛ هي جزء من حقيقتها. فكيف تدعو إنساناً إلى رب رحيم بلسان لا يعرف الرحمة؟ وكيف تقنعه أن الوحي يهذب النفس وأنت تعرضه بانفعال لا يضبط نفسه؟

ليس الرفق تنازلاً عن العقيدة، كما أن الوضوح ليس ترخيصاً في الإهانة. وبين التميع والغلظة يقيم القرآن طريقه: حقيقة كاملة في وعاء من الحكمة.

الرحمة التي لا تلغي العدل

تكررت في السورة حقيقة عظيمة: (كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ).

والكتابة هنا تفضل من الله ووعد أوجبه سبحانه على نفسه بمحض كرمه، على الوجه اللائق بجلاله. لا قوة فوقه تلزمه، ولا حاجة تدفعه؛ إنه الغني ذو الرحمة.

تتجلى هذه الرحمة في إرسال الرسل قبل الحساب، وفي الإمهال بعد التكذيب، وفي قبول التوبة بعد السوء، وفي مضاعفة الحسنه عشرًا، وفي عدم مضاعفة السيئة فوق مثلها.

لكن الرحمة ليست خطابًا لتخدير الضمير. فالسورة نفسها تتحدث عن العذاب والحشر والخسارة؛ لأن الرحمة التي تلغي العدل ليست رحمةً بالمظلوم.

أي رحمة تكون في عالم يقتل فيه الظالم، ثم يموت والضحية بلا إنصاف؟ وأي معنى للأمانة إذا انتهى الخائن والأمين إلى مصير واحد لا حساب بعده؟

القيامة من مقتضيات الرحمة، لأنها تحفظ للخير قيمته وللمظلوم حقه. إن خبر الله بالآخرة يقول لكل من غلب في الدنيا: لم تُغلق القضية. ويقول لكل من ظن أن قوته محت أثر جريمته: لم تُطو الصفحة بعد.

الرحمة باب للعودة لا ستار للإقامة

قال الله تعالى: ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

لم تجعل السورة الماضي سجنًا أبديًا. مهما أخطأ الإنسان يستطيع أن يعود، لكن العودة ليست ندمًا عاطفيًا يطلب إزالة الألم مع بقاء سببه؛ إنها توبة وإصلاح.

التوبة تعيد العلاقة بالله، والإصلاح يعالج ما أفسدته الخطيئة في الأرض. من أخذ حقًا يرده، ومن شوه إنسانًا يصحح ما قال، ومن بنى مجده على ظلم الآخرين لا يكتفي بأن يستغفر في سره بينما يبقي البناء قائمًا فوق جراحهم.

رحمة الله أوسع من الذنب، لكنها أكرم من أن تتحول إلى حيلة يستعملها
المصريون ضد عدله.

إنك لست أسوأ لحظة في حياتك إذا خرجت منها إلى الله، ولست مضطراً إلى
مواصلة الطريق الخطأ لأنك قطعت فيه مسافةً طويلة. الرجوع لا يصبح عيباً
لأنه جاء متأخراً؛ العيب أن تعرف الجهة ثم تواصل الابتعاد حتى لا تعترف
بأنك أخطأت.

الهداية انشراح

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾.

من علامات الهداية أن يجد القلب في الإسلام سعته، لا أن يراه جداراً يضيق
به. تأتية أوامر الله، فيشعر أنها تعيده إلى فطرته ولو خالفت شهوته العاجلة.

أما المعرض: ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾.

كل آية تشق عليه؛ لأنها تطالبه بإخلاء موضع احتله الهوى. ليس الوحي هو
الذي ضيق عليه، بل امتلاء الداخل بغيره. فالإناء الممتلئ لا يستقبل ماءً جديداً
حتى يفرغ شيئاً مما فيه.

والهداية ليست لحظة ماضية يقول الإنسان: اهتديت وانتهى الأمر. إنها مدد
يتجدد، ولهذا كان إبراهيم عليه السلام يقول: ﴿لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ
الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾.

لا يستغني أحد عن الله بعقله أو علمه أو تاريخه في العبادة. وقد يكون أخطر
الضلال ما دخل على صاحبه من باب شعوره بأنه صار أكبر من أن يضل.

النجاة من كثرة الطرق

قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾.

الصراط مفرد، والسبل متعددة. الحق يجمع الإنسان، والباطل يوزعه. كل شهوة تفتح له طريقاً، وكل عصبية تسحبه إلى جهة، وكل خوف يرسم له قبلة مؤقتة. فإذا استجاب للجميع عاش ممزقاً؛ يقول في مجلس ما ينقضه في آخر، ويبدل قيمه كلما تبدلت موازين القوة.

أما الصراط المستقيم فيمنحه مركزاً ثابتاً. قد تتغير الأحوال، لكن المرجعية لا تتغير. يحب ويكره ويعطي ويمنع في ضوء ميزان أعلى من انفعاله.

وليس استقامة الصراط دليلاً على خلوه من المشقة؛ قد يكون طريق الهوى أسهل في أوله، لكنه يلتف بصاحبه حتى يعيده إلى التيه. أما الصراط فيمضي مستقيماً إلى دار السلام، وإن احتاج السائر فيه إلى صبر.

لا جماعة فوق الحقيقة

حذرت السورة من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً. وليس كل خلاف تفرقاً؛ فالاجتهاد قد تتعدد وجوهه وتبقى القلوب مجتمعة على أصل الوحي. إنما التفرق أن تتحول الجماعة إلى مرجعية تنافس الحق.

عندئذ لا يسأل الإنسان: ماذا قال الله؟ بل: ماذا يقول فريقتي؟ لا يزن القول بالدليل، بل باسم صاحبه. فإن جاء الصواب من خصمه بحث عن عيب فيه، وإن جاء الخطأ من قريبه بحث عن فضيلة تخفيه.

هذه وثنية اجتماعية خفية: لا تُنحت الجماعة من حجر، لكنها تمنح من الولاء ما يجعل أتباعها يضحون بالحقيقة لحمايتها.

التوحيد لا يلغي الانتماء، بل يطهره. تنتمي وتحب وتتعاون، لكنك تعرف أن الجماعة خادمة للمبدأ لا مالكة له، وأن الحق لا يصبح باطلاً إذا قاله خصم، ولا يصير الباطل حقاً إذا نطق به صديق.

كل نعمة سؤال

اختتمت السورة بقول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾.

لسنا ملاكاً أبديين للأرض، بل خلائف. دخلناها بعد أجيال وخرجوا منها، وسنخرج كما خرجوا. كل شيء بين أيدينا مؤقت، لكن أثر استعماله باقٍ.

التفاوت ليس شهادة تفوق ذاتي؛ إنه اختلاف في أسئلة الامتحان. من أعطاه الله مالاً يُسأل عن المال، ومن أعطاه علماً يُسأل عن أمانة العلم، ومن أعطاه منصباً يُسأل عن كرامة الذين صار أمرهم بين يديه.

قد يتوهم الإنسان أن النعمة جائزة، بينما هي ورقة امتحان. وكلما عظمت الدرجة عظم السؤال.

القيادة ليست ارتفاعاً فوق الناس، بل وقوفاً تحت أُنقال حقوقهم.

والعلم ليس حقاً في التعالي، بل واجب في البيان.

والقلم ليس زينةً لصاحبه، بل أمانة في حماية المعنى من التضليل.

والمال ليس سورًا يعزل صاحبه، بل باب تراه عيون المحرومين قبل أن يراه.

ليس السؤال يوم القيامة: لماذا لم تكن غيرك؟ بل: ماذا صنعت بما آتاك الله أنت؟

الكلمة التي جمعت السورة

تتجمع خيوط سورة الأنعام كلها في الإعلان العظيم: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٠﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾.

الصلاة لله، فلا رياء.

والنسك لله، فلا ذبح لغيره.

والمحيا لله، فلا انفصال بين العقيدة والحياة.

والممات لله، فلا تبديل للعهد عند آخر الطريق.

هذه ليست عبارةً تقال في لحظة حماس، بل مشروع لتحرير الإنسان كله. أن تكون صلاته لله وحياته في الوقت نفسه موزعةً بين أهواء الناس تناقض لم تأذن به السورة.

﴿مَحْيَايَ﴾ تشمل كل ما بين الميلاد والموت: طريقة الكسب، وصناعة الموقف، والحب والخصومة، والصدق حين يكلف، والعدل حين يكون القريب هو المخطئ. فالله لا يريد جزءًا معزولاً من الإنسان؛ إنه رب العالمين، ورب أيامه كلها.

(وَمَمَاتِي) تعني أن يمضي العبد إلى ربه بالوجهة نفسها التي عاش بها، وألا يساوم على الحقيقة ليشتري أيامًا قليلة من عمر كتب أجله قبل أن يولد.

هنا يبلغ التوحيد كماله: أن يستوي محراب الإنسان وسوقه، وسره وعلانيته، وفكره وسلوكه، فلا يعيش بعدة وجوه تتوزعها الجهات.

من الآلهة المتناثرة إلى القلب الواحد

كانت السورة رحلةً من التبعثر إلى الوحدة.

من آلهة كثيرة إلى إله واحد.

ومن أهواء مشرّعة إلى كتاب مفصل.

ومن سبل متفرقة إلى صراط مستقيم.

ومن ولايات تخذل إلى ولاية الله.

ومن خوف يبعثر النفس إلى خشية تجمعها.

ومن دنيا تبدو كل شيء إلى آخرة تكشف حجمها الحقيقي.

وليس القلب الموجّد قلبًا لا يتألم أو يخاف الخوف الفطري، بل قلبًا يعرف إلى من يعود بألمه وخوفه. قد تضيق به الأسباب، لكنه لا يظن أن خزائن الله ضاقت. وقد يخذله الناس، لكنه لا يقرأ خذلانهم بوصفه تخليًا من الله عنه. وقد يسقط، لكنه يعرف باب التوبة.

إنه يعيش في عالم متغير، لكنه متصل بمن لا يزول. تمر عليه الأشياء دون أن تستعبده، ويستخدمها دون أن يجعلها غايته، ويحبها دون أن يودع فيها مصير روحه.

لقد علمته سورة الأنعام أن الكوكب يأفل، والقمر يأفل، والشمس تأفل،
والسلطان يأفل، والعمر نفسه يأفل؛ فلا يسلم قلبه إلا لله.

النداء الأخير

يا أيها الإنسان، إن السماوات التي رفعت بصرك إليها السورة لم تُخلق عبثاً،
والأرض التي تحمل خطاك ليست مقرّك الأخير، والأيام التي تتساقط من
عمرِكَ لا تعود.

أنت مخلوق من طين، لكن الله نفخ في حياتك معنى المسؤولية. وُضعت بين
ظلمات ونور، وأعطيت قلباً يستطيع أن يختار. تمر بك الآيات في الخارج
والداخل، ثم تكتب بموقفك منها مصيرك.

فلا تجعل الألفة تطفئ دهشتك.

ولا تجعل الكثرة تستعير منك عقلك.

ولا تجعل الخوف يمنح مخلوقاً مقام الخالق.

ولا تجعل الذنب يقنعك بأن طريق العودة أُغلق.

ولا تجعل الجماعة تعفيك من مسؤوليتك الفردية أمام الله.

اسأل نفسك عن الآلهة التي لا تسميها آلهة: من تخشاه فوق الحد؟ ولمن تبيع
كلمتك؟ ومن أجل ماذا تغير ميزانك؟ وأي شيء إذا أفل شعرت أن وجودك
كله قد أفل معه؟

هناك تبدأ سورة الأنعام فيك.

لا تبدأ عند الصنم القائم خارجك، بل عند العرش المختبئ في قلبك. وكل تدبر لا يصل إلى ذلك العرش، فينزع عنه ما سوى الله، يظل واقفاً خارج أعماق أبواب السورة.

وحين تسقط الأرباب الصغيرة واحداً بعد آخر، لا يبقى القلب فارغاً؛ يمتلئ بالله. وعندها فقط يفهم معنى الأمن: (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ).

إنه الأمن الذي لا تمنحه كثرة المال، ولا حراسة السلطان، ولا رضا الجمهور؛ أمن أن تعرف ربك، وتعرف طريقك، وتعرف أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وأن ما أصابك لم يقع خارج علم الحكيم الخبير.

ثم تمضي في الأرض خليفة لا مالكا، وأميناً لا متسلطاً، وعابداً لا تائهاً؛ حتى تنتهي رحلتك إلى الوعد الذي وضعت السورة نوره في آخر الطريق:

(لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

وهكذا تسترد سورة الأنعام الإنسان من الآلهة المتناثرة؛ لا لتتركه وحيداً في كون بارد، بل لترده إلى مولاه الحق، فيكتشف أن الحرية لم تكن يوماً أن يعيش بلا رب، وإنما أن يتحرر من كل رب زائف، ثم يسكن آمناً في عبوديته لله.

فهرس الكتاب

٣. مقدمة الكتاب

الفصل الأول

٥. الفصل الأول: حين ينهض الحمد فوق أنقاض الشرك

الفصل الثاني

١٠. الفصل الثاني: الإنسان الذي يهرب من الدليل

١١. سرُّ الإنسان مكشوف في مُلك الله

١٢. الآيات تمرّ والقلب معرض

١٤. من التّكذيب إلى السخرية

١٥. التاريخ مقبرة الغرور

الفصل الثالث

١٨. الفصل الثالث: حين لا تكفي المعجزة قلبًا قرر ألا يؤمن

١٩. طلب الملّك والفرار من بشرية الرسول

٢٠. لو كان الرسول ملّكًا

٢١. حين تنقلب السخرية على أصحابها

٢٣. سؤال الملك الذي لا يملك إلا جوابًا واحدًا

٢٥. الخسارة التي تبدأ من الداخل

٢٦. السكون والحركة في قبضة الواحد

الفصل الرابع

٢٨. الفصل الرابع: الولاية التي تحرر القلب من الخوف

٣٠. الإسلام: أن تكون لله أولاً

٣١. خوف يصنع الشجاعة

٣٢. لا كاشف للضر إلا هو

٣٤. القاهر فوق عباده

٣٤. أعظم شهادة

٣٦. معرفة يقتلها الهوى

٣٧. الظلم الأكبر: أن تنسب إلى الله ما لم يقله

٣٨. يوم تسقط الآلهة المصنوعة

الفصل الخامس

٤٠. الفصل الخامس: حين يسمع الإنسان القرآن ولا يصل إليه

٤١. الجدل الذي لا يريد الحقيقة

٤٢. ينهون عنه وينأون عنه

٤٤. أمنية تولد على حافة النار

٤٥. ما أخفته النفس ظهر

٤٦. الحياة التي حُصرت في التراب

٤٧. حين يقفون بين يدي الحقيقة

٤٧. الخسارة عند مجيء الساعة

٤٩. حين تنكمش الدنيا إلى حجمها

الفصل السادس

٥١. الفصل السادس: الرسول الذي يحزن لأنهم لا يبصرون

٥٣. طريق الرسل ليس مفروشا بالتصديق

٥٤. لا تُهلك نفسك بحثًا عن منفذ إلى قلوب مغلقة

٥٦. من الذي يسمع حقًا؟

٥٦. اقترح الآيات لا ينتهي

٥٧. أمم تمشي وتطير

٥٨. صمّ وبكم في الظلمات

٥٩. الدعاء الذي يعرّي الشرك

٦٠. لماذا تأتي البأساء والضراء؟

٦١. الاستدراج: حين تُفتح الأبواب كلها

الفصل السابع

٦٤. الفصل السابع: حين يصبح السمع والبصر سؤالاً عن الهداية

٦٥. العذاب لا يحتاج إلى إعلان مسبق

٦٦. مهمة الرسل: بشارة وإنذار

٦٨. الرسول الذي لا يدّعي ما ليس له

٦٩. هل يستوي الأعمى والبصير؟

٧٠. الذين يخافون يوم الجمع

٧١. لا تطرد الذين يدعون ربهم

٧٢. الفتنة التي يكشف بها الله القلوب

٧٣. سلام يسبق التوبة

٧٤. لماذا تُفصل الآيات؟

الفصل الثامن

٧٦. الفصل الثامن: حين يتحرر الوحي من أهواء البشر

٧٧. البيّنة التي لا تملكها الأهواء

٧٩. لو كان العذاب بيد البشر

٧٩. مفاتيح الغيب

٨١. النوم: وفاة تعيد إلينا معنى الحياة

٨٢. الحفظة وساعة الوفاة

٨٣. من ينجيكم من ظلمات البر والبحر؟

٨٤. العذاب الذي يأتي من فوق ومن تحت

٨٦. لست عليهم بوكيل

٨٧. لا تجلس حيث تُهان الآيات

٨٨. التذكير لا التشفي

٨٨. حين يتحول الدين إلى لعب

٩٠. حيرة من استهوته الشياطين

٩١. كلمة الحق وبداية الوجود ونهايته

الفصل التاسع

٩٣. الفصل التاسع: إبراهيم عليه السلام — حين تساقطت الآلهة تحت ضوء الفطرة

٩٥. ملكوت السماوات والأرض

٩٦. الكوكب الذي أفل

٩٧. القمر الذي لم يحتل مقام الربوبية

٩٨. الشمس: الصنم الأكبر يسقط أيضاً

٩٩. الوجهة التي لا تأفل

١٠٠. حين يحاجّ المجتمع فطرته المستيقظة

١٠١. مَنْ الْأُولَى بِالْخَوْفِ؟

١٠٢. الْحِجَّةُ الَّتِي يَرْفَعُ اللَّهُ بِهَا عِبَادَهُ

١٠٣. مَوْكِبُ النَّبُوءَةِ: أَسْرَةُ التَّوْحِيدِ الْمَمْتَدَّةِ

١٠٥. حَتَّى الْأَنْبِيَاءُ لَا يَسْتَغْنُونَ عَنِ التَّوْحِيدِ

١٠٦. الْكِتَابُ وَالْحُكْمُ وَالنَّبُوءَةُ

١٠٦. ﴿فَبِهَذَا هُمْ اقْتَدَبُوا﴾

الفصل العاشر

١٠٨. الفصل العاشر: حِينَ يُعْرِفُ اللَّهُ مِنْ كَلَامِهِ وَآثَارِ صَنْعِهِ

١١٠. الْكِتَابُ الْمُبَارَكُ الَّذِي يُوَقِّظُ أُمَّ الْقُرَى وَمَا حَوْلَهَا

١١٢. مَنْ يَكْتُبُ وَحْيًا مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ؟

١١٣. غَمَرَاتُ الْمَوْتِ وَسُقُوطُ الدَّعَاوَى

١١٤. عَدْتُمْ فِرَادَى

١١٥. فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى

١١٦. فَالِقُ الْإِصْبَاحِ

١١٨. النُّجُومُ الَّتِي تَهْدِي فِي الظُّلُمَاتِ

١١٩. مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ

١٢٠. الْمَاءُ الَّذِي يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ

١٢١. شُرَكَاءُ مِنْ عَالَمِ الْجِنِّ وَأَبْنَاءُ بِلَا عِلْمٍ

١٢٢. بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

١٢٣. ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ

١٢٤. لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ

١٢٥. بصائر من ربكم

الفصل الحادي عشر

١٢٧. الفصل الحادي عشر: أخلاق التوحيد في عالم مزدحم بالباطل

١٢٨. لو شاء الله ما أشركوا

١٢٩. لا تسبوا آلهتهم

١٣٠. الأيمان التي تخفي وراءها المراوغة

١٣١. عقوبة التقلب الأول

١٣٢. لو نزلت الملائكة وكلمهم الموتى

١٣٣. لكل نبي عدو

١٣٤. أغير الله أبتغي حكمًا؟

١٣٥. كلمة تمت صدقًا وعدلاً

١٣٦. الكثرة ليست دليلاً

١٣٧. طعام يمر من باب العقيدة

١٣٨. ظاهر الإثم وباطنه

١٣٩. أكلة يوحى بها الشيطان إلى أوليائه

١٤٠. الميت الذي مشى بالنور

١٤١. أكابر المجرمين

١٤٢. حين يستكثر المتكبرون الرسالة على أهلها

١٤٣. انشراح الصدر وضيق الصعود

١٤٤. هذا صراط ربك مستقيماً

١٤٥. دار السلام

الفصل الثاني عشر

١٤٧. الفصل الثاني عشر: حين يتحول الهوى إلى شريعة

١٤٨. الظالمون أولياء بعض

١٤٩. ألم تأتكم رسل منكم؟

١٥٠. لا عذاب بلا بيان

١٥١. الغني ذو الرحمة

١٥٢. قسمة اخترعها الهوى

١٥٣. حين يبلغ الشرك حد قتل الأبناء

١٥٤. أنعام وحروث محجورة

١٥٥. ما في البطون للذكور وحدهم

١٥٦. الذين خسروا أبناءهم وعقولهم

١٥٧. جنات معروشات وغير معروشات

١٥٨. حمولة وفرشاً

١٥٩. ثمانية أزواج وسؤال الحجة

١٦٠. المحرمات كما يبينها الوحي

١٦١. تحريم كان جزاءً

الفصل الثالث عشر

١٦٣. الفصل الثالث عشر: من فوضى التحريم إلى ميثاق الإنسان الموجد

١٦٤. حجة المشيئة التي تصنعها المعصية

١٦٦. الحجة البالغة

١٦٦. هاتوا شهداءكم

١٦٧. تعالوا

١٦٨. وبالوالدين إحسانًا

١٦٩. لا تقتلوا أولادكم من إملاق

١٧٠. لا تقربوا الفواحش

١٧٠. النفس التي حرّم الله

١٧١. مال اليتيم: امتحان القوة أمام الضعف

١٧٢. أوفوا الكيل والميزان

١٧٣. وإذا قلتم فاعدلوا

١٧٤. وبعهد الله أوفوا

١٧٥. صراطي مستقيمًا

١٧٦. كتاب موسى تمامًا على الذي أحسن

١٧٦. وهذا كتاب أنزلناه مبارك

١٧٧. سقط العذر: لم ينزل الكتاب علينا

١٧٨. الإيمان الذي يأتي متأخرًا

١٧٩. الذين فرقوا دينهم

١٨٠. الحسنة بعشر أمثالها

١٨١. ملة إبراهيم حنيفًا

١٨١. الصلاة والنسك والمحيا والممات

١٨٢. كلها لله

١٨٣. أغير الله أبغي ربًّا؟

١٨٣. لا تزر وازرة وزر أخرى

١٨٤. خلائف الأرض

١٨٥. سريع العقاب وغفور رحيم

خاتمة الكتاب

١٨٧. خاتمة الكتاب: حين يسترد التوحيد قلب الإنسان

١٨٨. الكون لا يعاني أزمة في البيان

١٨٩. ليست الآفة في غياب البرهان

١٩٠. إبراهيم: اليقين الذي لا يخاف الأفول

١٩١. الشرك الذي لا يحتاج إلى صنم

١٩٢. حين يختبئ الهوى داخل الدين

١٩٣. التوحيد الذي ينزل إلى السوق

١٩٥. كرامة الضعيف امتحان صدق المجتمع

١٩٦. أخلاق الصراع

١٩٦. الرحمة التي لا تلغي العدل

١٩٧. الرحمة باب للعودة، لا ستار للإقامة

١٩٨. الهداية انشراح

١٩٩. النجاة من كثرة الطرق

١٩٩. لا جماعة فوق الحقيقة

٢٠٠. كل نعمة سؤال

٢٠١. الكلمة التي جمعت السورة

٢٠٢. من الآلهة المتناثرة إلى القلب الواحد

٢٠٣. النداء الأخير

